الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران – السانيا–

كلية الآداب والفنون — قسم اللغة العربية و آدابها

تخصص: بلاغة القرآن – دراسة في الأساليب –

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها:

بلاغة التوازي في السور المدنية

إعـداد الطالب:

العربي عبد الله

إشراف الأستاذ:

د.بوعزة عبد القادر

لجنة المناقشة 2015/06/28

الدكتـــورة	بوعناني سعاد آمنة	رئيســـــا
الدكتـــور	بوعـــزة عبد القادر	مشرفا ومقررا
الدكتـــور	ميلـــود منصوري	منـــــاقشا
الدكتـــور	بوشيبـــة الطيب	منـــــاقشا

1435 – 1436

2014 - 2015

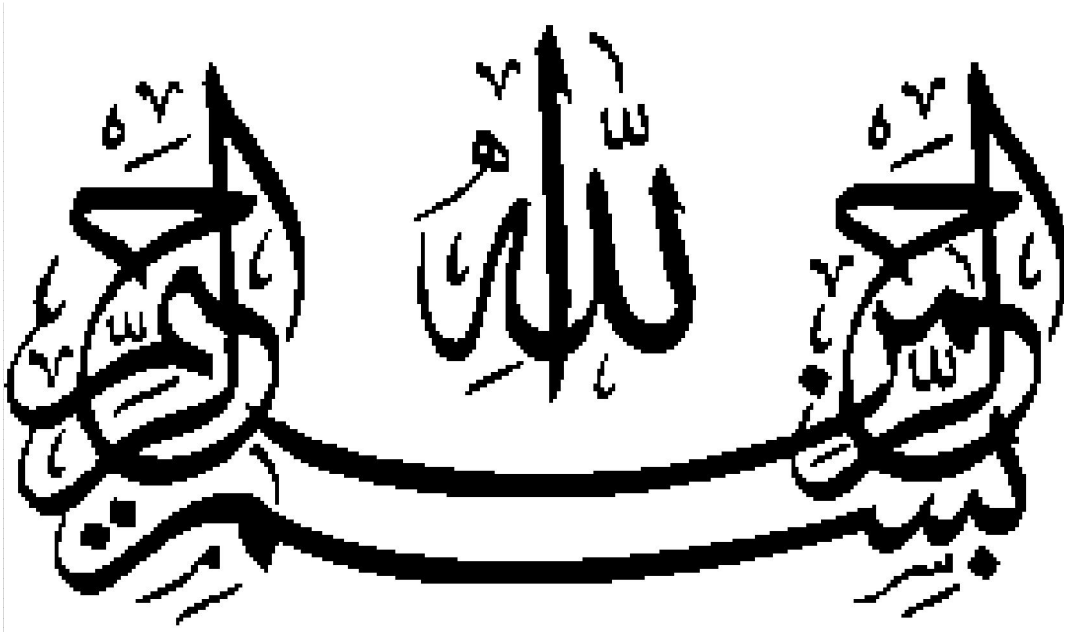

دعاء

اللهمّ إنّا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلّف لما لا نحسن كما نعوذ بك من العجب بما نحسن، ونعوذ بك من السّلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العيّ والحصر.

إهداء

أهدي ثمرة هذا الجهد إلى :

اللذين أوصاني ربي بدوام الإحسان إليهما ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

الذين جمعني بهم أسمى رباط وأقدسه "أسرتي الكريمة"

الذين وسعهم قلبي ولم يسعهم قلمي "أحبتي في الله"

شكر وعرفان

أول شكر أخصه لله بحمده على نعم منه تترى علي:

فما زال يوريني الجميل تلطفـــا ويدفع عني في صدور النوائب

ويحفظني شيخا وكهلا وقبلهـــا جنينا ويحميني وبي المكاسـب

ثمّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي نبادله شوق المودة ورباط الأخوة " «ليتني لقيت إخواني فإني أحبهم .... أليس نحن إخوانك؟ قال: « لا، أنتم أصحابي، إخواني الذين لم يروني، وآمنوا بي وصدقوني، وأحبوني"

ومن تمام شكر الله ورسوله، شكرُ ذوي الفضل، فجزى الله بالخيرات أستاذي الفاضل " بوعزة عبد القادر " على تحمله أعباء السهر لتنقيح زلات هذا البحث.

وجزى بخير مثله كل من أسهم فيه ولو بدعوة خالصة في ظهر الغيب قائلا " جزاكم الله خيرا " «لو أن أحدكم، يعلم ما في قوله لصاحبه جزاك الله خيرا، لأكثر منها بعضكم لبعض»

مقـــــدمـــــة

مقدمة:

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، ومن بهم اقتفى واهتدى، وعلى نهجهم أزاح ظلمات الدجى وبعد:

فمن تمام مِنّةِ الله سبحانه على المسلمين، اصطفاؤه لهم بكتابه المبين، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ثمّ تشريفه ثلة منهم للاعتكاف على دراسته واستخراج دُرره عبر سائر العصور، لتبقى الدراسات المهتمة بما فيه من أسرار، تتوالى عبر الأزمنة كاشفة ما حواه من الفنون.

ولعل من أهم الدراسات التي تُحظى بعناية المحدثين في وقتنا، والتي تبعث في نفوسنا أقدس شجو لأقدس كتاب على وجه الأرض، الدراسات الصوتية بمختلف أصنافها، خاصة تلك التي منبعها التقسيم الثنائي أو ما اصطلِح عليه في الدراسات الحديثة " التوازي " القائم على الاهتمام بتشابه المباني واختلاف المعاني، وما يفرزه من معان دلالية وإيقاعية.

ولربما أثار مصطلح " التوازي " شبهة لدى البعض، لاختصاصه بالدلالة على المشابهة في العلوم الرياضية والفيزيائية، لكن ما العمل إذا كانت العلوم الإنسانية تصر على إلغاء الحدود بين أصناف العلوم، وتأبى إلا مشاركتها ولو في المسميات، فكما أن الخطين المتوازيين لا يتقاطعان ولا يلتقيان، فكذلك الجملتان – خاصة في كتاب الله – إن تشابهتا في بنائهما، افترقتا في دلالتيهما.

على أن التوازي بمفهومه المتقدم ظاهرة بارزة في التنزيل أثبتها الله سبحانه حين قال ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ الزمر 23، وقد تنبّه الناس قديما لدلالات هذا التشابه الثنائي، وتناولوه في دراساتهم وتصانيفهم، تحت مسميات بلاغية منوعة، فسموه تقسيما وتعادلا ومكافأة ومساواة وموازاة وسجعا ... الخ، واستمر الأمر على حاله حتى وقت قريب، بعدما تنبه الباحثون إلى الجوانب الصوتية والإيقاعات الموسيقية التي يسري عليها الخطاب القرآني، وما تحمله من دلالات وإيحاءات.

إن تتعدد المصطلحات البلاغية الدالة على كسر النسق التعبيري ، ومخالفة سياق الكلام المعهود إلى نسق آخر، ابتغاء الإحساس بما ينطوي عليه من جماليات تعبيرية، يمثل محور الدراسات المعاصرة وجوهرها، والموضوع الذي نحن بصدد تناوله، من أهمّ ما يحقق تلك الميزات، انطلاقا من القرآن الكريم الذي يعدّ المرجع الأساس لسائر الدراسات اللغوية، لأجل ذلك جاء هذا البحث مبرّزا للظاهرة في جزء منه، ألا وهو السور المدنية التي يندر الاستشهاد بها في مثل هذه الدراسات، ومجيبا عن الإشكالية التالية:

إذا كان التوازي ظاهرة بارزة في القرآن المكي لشدة أسلوبه، مراعاةً لأحوال المخاطبين به وظروفهم، فهل ذلك متحققٌ مع لطف أسلوب السور المدنية، التي ينتظر أن يكون احتفاؤه بالجمال أقل من مَثُلَاتِها المكية ؟

وقصد الإجابة عن سؤال الإشكالية المطروح قريبا، ذلك اتبعت منهجا استقرائيا تحليليا، يقوم على جمع الآيات المتوازيات ثمّ استقراؤها وتحليلها، وِفْقَ خطة تتصدرها مقدمة ومدخل، وتعقبها فصول ثلاثة في كل منها مباحث ثلاثة كذلك ، وفيما يلي تفصيل لخطة العمل:

الفصل الأول: وُسم **بضبط المفاهيم وتحديد الأهمية**، وفيه تعرضت لتبيان الظاهرة بتعريفها اللغوي والاصطلاحي، وتحديد أهميتها في الدراسات البلاغية، ثم عمدت إلى البحث عن أصولها في كتب التراث أولا، بِعدّها الركيزة الأساس المُستند إليها في الدراسات النقدية والبلاغية العربية الحداثية، ومن ثَمّة عرّجتُ على مفهوم التوازي في الدراسات الغربية، بغية الإلمام بالموضوع من شتى جوانبه، أما المبحث الثالث فخصصته لأنواع التوازي التي تحدث عنها أهل الاختصاص في القرآن.

أما **الفصل الثاني** فعنونته **ببنية التوازي في التعبير القرآني**، وفيه أشرتُ للعوامل المسهمة في صناعة التوزاي في الخطاب القرآني، من الناحية الجمالية التعبيرية، ومن ناحية التأثير والتأثر في المتلقي، وتناولت فيها أثر السياق في التفرقة بين الآيات المتوازيات، ثم أثر الفاصلة القرآنية التي تعدّ أرحب موقعا يتراءى فيها نسق التوازي، لعلاقتها الوطيدة بمحسّن السجع الذي يعد مصطلح التوازي أحد أَضْرُبِهِ، وخَلُصْتُ في المبحث الثالث إلى إبراز النواحي الجمالية لموضوع هذا البحث، من خلال الإفاضة في علاقته بالإيقاع وقوانينه، لكون التوازي قانونا مُهمّاً، يلمّ إليه سائر القوانين التي تحدث تفاعل المرتل بآي القرآن .

أمّا عن الفصل الثالث فكان لإثبات الظاهرة في السور المدنية، ذوات الأسلوب الهين اللطيف المراعي لأحوال المخاطبين به، وفيه اهتممت بتبيان مواقع الآيات المتوازية وبلاغتها، من خلال أبنيتها النحوية والظواهر اللغوية المعينة على إيقاع الظاهرة فيها الآيات المدنية، استنادا لما قاله المفسرون كالرازي في مفاتيح الغيب، والزمخشري في الكشاف، والطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير.

وقد كان يحدوني أملٌ كبير بعد المطالعة والتمحيص، في دراسة مظهر من مظاهر الخروج عن مقتضى الظاهر، هو "الالتفات في السور المكية" بدل "بلاغة التوازي في السور المدنية"، غير أن اللجنة العلمية الموقرة أثبتت الأخير ورفضت الأول، لدواعٍ هي أعلم بها، ولها كامل شكري وامتناني على ذلك، لأنّ المتعة التي يجدها الباحث فيما يجهله – وإن كانت مصحوبة ببعض المشقة – ألذّ من تلك التي يجدها وهو منشغل بالبحث فيما له معرفة مسبقة به، ويكفي المرء فخرا أن يثري رصيده بالفهم لآيات طالما وقف على تخومها حائرا مستفهما، وهاهنا تذكرت قول ابن عطاء الله السكندري " ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك " إذ العطاء من الله إحسان، والتيسير في الأمر دليل الإذن به، فلولا ما أذن به من المنع لم يكن ما أورده من الفهم.

وإنني لأعترف في هذه المقام، بصعوبات رافقت رحلة البحث هذه، أولها الخوف من إبداء الرأي في كتاب الله دون التحقق من صحته، ثم عسر العثور على المصادر والمراجع المتخصصة في الموضوع، لاختصاص أغلبها بالشعر، حيث لم أعثر – فيما بحثتُ – إلا على دراستين تناولتا المفهوم في القرآن الكريم، أولهما مذكرة ماجستير بعنوان: التوازي التركيبي في القرآن الكريم، وثانيهما دراستين بعنوان: التوازي في سورة القمر، والتوازي الصوتي في سورة القمر، يُضاف إلى ذلك كله سيف الوقت المُشْرع فوق هامات الباحثين جميعا .

ومع ذلك فلست أُبرّئ نفسي من قصور الفهم، الذي حال في أحيان كثيرة دون إخراج هذا البحث في صورته البديعة، فلكل جواد كبوة ولكل باحث هفوة، ولكن ما لا يدرك جله لا يترك كله، ولقد حاولت التسديد والمقاربة ما أمكنني ذلك، فإن أصبت فبتوفيق من الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان الرجيم، والله ورسوله منهما بريئان، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

مـــدخـــل

في الإعجاز القرآني

مدخل: في إعجاز القرآن:

أنعم الله بأصول الحكمة على ثلاث أقوام من بني الإنسان، فمنح المنطق والفلسفة لأهل اليونان، ووهب أهل الصين طب الأبدان، وخصّ العرب بالفصاحة والبيان، وهو أَصْلُ الحِكْمِ كلّها عند ذوي الأذهان، وذاك لهم من تمام الفضل والامتنان، وفي تواتر الأخبار دليل وبرهان.

"ومعلوم أن سبيل الكلام سبيل ما يدخله التفاضل... وأن الأصل فيه والقدوة للعرب، ومن عَداهم تبعٌ لهم وقاصر عنهم فيه" [1]،وأن فعل الكلمة في العربيّ أشدّ من وقع السحر، وأقسى من مقارعة الأبطال والأسِنة ، فقد جاء في البيان "كان الرجل من بني أنف الناقة إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال:من بني قُريع، فما هو إلا أن قال الحطيئة:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

وصار الرجل منهم إذا قيل له: ممن أنت؟ قال: من بني أنف الناقة"[2] رافعا بها عقيرته، ذاك هو تأثير الكلمة في العرب وذاك هو بأسها، فلما نزل القرآن متحدٍ لهم في صنعتهم، جحدوه واستيقنته أنفسهم ظلما وعلوا.

ومعلوم أن الله سبحانه أنزل كتابه المعجز، على نبيه موافقا لسنن العرب في كلامها، مقرونا بالتحدي لأرباب صنْعة الكلام، وفي الوقت ذاته خارقا لما تعارفت عليه من الأساليب، مُثْبِتٌ عجزهم على الإتيان بمثله فقال سبحانه ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء 88، فعجزوا عنه وإن أَبَواْ الإقرار، فإن كان حال أرباب الصنعة كالذي وصفنا فسواهم عن مجاراة أسلوب القرآن أعجز، كما يقرر الرماني: "فإن قال قائل فلم اعتمدتم على الاحتجاج بعجز العرب دون المولَّدين، وهو عندكم معجز للجميع ..؟ قيل لأن العرب تقيم الأوزان والإعراب بالطباع، وليس في المولَّدين من يقيم الإعراب بالطباع كما يقيم الأوزان، والعرب على البلاغة أقدر... فإن عجزوا عن ذلك فالمولَّدون عنه أعجز"[3]

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلاّم، ط03 (1976)، دار المعارف المصرية، ص 117.

[2] أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، دتح، ج 03، دط (2002) دار ومكتبة الهلال، بيروت، ص 269.

[3] أبو الحسن الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلاّم، ط03 (1976)، دار المعارف المصرية، ص 113.

لكن إرادة الله لهذه الأمة، أن تكون خير أمة أُخرجت للناس، قال سبحانه ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم ﴾ الأنبياء 10،أي شرفكم، فصرف سبحانه طائفة من جهابذة علمائها، قديما وحديثا يستنبطون أحكامه ودرره، وما تركوا واردة ولا شاردة فيه إلا أماطوا لثامها، وكشفوا مستورها، وستبقى الدراسات في إعجاز القرآن تترى حسب متطلبات كل عصر.

ففي باكورتها، كان البحث عن وجوه إعجازه البياني سمة ظاهرة لحداثة العهد بلغته الراقية، فراح العلماء يستقصون معجزته الخالدة المقرونة بالتحدي لسائر العصور.

فذهب قوم إلى أن وجه الإعجاز في القرآن بلاغته، التي أعجزت المشركين عن معارضته، وحمّلتهم ويلات الحرب وتبعاتها –وهم أهل البلاغة–، وقالوا أن بلاغته ناشئة من إحاطته بجميع اللغة، إذ لا يحيط بها إلا نبي، ومن ثمّ تجد نظمه متآلفا ترتبط فيه الألفاظ بمعانيها التي تحملها " وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة، لفظ حامل ومعنى قائم ورباط لهما ناظم"[1] وهي لا تجتمع معًا إلا في كتاب الله سبحانه، لأن نظمه مشتمل على الفصاحة والغرابة، والتصرّف في ضروب البديع، والمعاني اللطيفة والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة والتناسب في بلاغة، والتشابه في براعة[2]، فحاز من البلاغة أشرفها، وهي "على عشرة أقسام: الإيجاز والتشبيه والاستعارة، والتلاؤم والفواصل والتجانس، والتصريف والتضمين والمبالغة، وحسن البيان"[3]، أضف إلى ذلك أن بنائه الصوتي، يجمع بين جناس الحروف وجناس إيقاعاتها المتناسبة مع الدلالة، كل ذلك ينتظم في القرآن، مُشكّلا نظما بديعا متوازيا، يستحيل المجئ بمثله، قال سبحانه: "أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"النساء 82.

ومن أسرار الإعجاز البلاغي للقرآن عندهم أيضا أنّه لا يقبل التبديل بين حروفه وألفاظه، كمثل لفظة "فاعلون" من قول ربنا حكاية عن صفات المؤمنين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ المؤمنون 04، إذ الشائع في أساليب العرب أن يقال "مؤدون بدل فاعلون" لكنه سبحانه عدل عنها ليشير إلى أن التأدية قد تكون مرة في العمر، بينما "فاعلون" فيها ثبات على الفعل بديمومة تكراره، وهو مناسب لفريضة الزكاة المتكررة كل

[1] أبو سليمان الخطابي، بيان إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلاّم، ط03 (1976)، دار المعارف المصرية، ص27.
[2] ينظر إبراهيم الأبياري، الموسوعة القرآنية، ج02، دط (1984)، مؤسسة سجل العرب، ص 343.
[3] أبو الحسن الرماني، مصدر سابق، ص 76.

عام من جهة، ولمعنى الرضا بالحكم وعدم الاعتراض عليه من أخرى، لما مُهِّد له قبل في الآية، مما يفيد الثبات بتعداد صفات المؤمنين المفلحين، فانظر في لغة العرب بأسرها، هل تجد لتلك اللفظة عوضا يقوم مقامها في سياقها وكذلك القول في القرآن كله.

من أجل ذلك استعاض المشركون عن معارضته، – مع شدة حاجتها وتوافر دواعيها– بحرب لا تبق ولا تذر، وإن كانوا أول من أُعجبوا بالقرآن وشهدوا له، فقد جاء في الآثار أن الوليد بن عقبة قال عن القرآن بعدما سمعه من النبي ﷺ " إن له لطلاوة، وإن عليه لحلاوة وإن أعلاه لمغدق وإن أسفله لمثمر"[1].

وذهب آخرون أن وجه الإعجاز فيه، الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة[2]، ومنه وَعْــد الله لنبيه بظهور الدين وأفول الكفر، قال عز من قائل ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُون﴾ التوبة 33 وقد حدث، وكذا إخباره عن فرح المؤمنين بنصر الروم على الفرس، قال ربنا ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الروم 01-05، ولا تزال الوعود الإلهية تحقق إلى يومنا تباعا.

وقال آخرون أن وجه الإعجاز في القرآن أُمّية النبي ﷺ، فمن أين لرجل يرعى أغنام أهل مكة، ولا يعرف الكتابة ولا القراءة، ولا جالس أهل الكتاب قط، بمثل تلك الأخبار من قصص الأولين، كخلق آدم و خروجه من الجنة، وأخبار موسى وعيسى عليهما السلام، وأخبار ثمود وعاد ...الخ، وقصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين أبين دليل على هذا، حين أغرى بعض النصارى المشركين بسؤال النبي ﷺ عن ذلك، ليتحققوا من نبوته فأجابهم ﷺ سأجيبكم غدا ولم يقل إن شاء، فعاتبه ربه سبحانه بانقطاع الوحي عنه لفترة، ثم أنزل عليه سورة الكهف جوابا لهم على أسئلتهم، وغير هذا كثير في القرآن مما تَثبُتُ به دعوة النبي ﷺ.

تلك هي أصول وجوه الإعجاز التي ذكرها الأولون، وما تبقى غير ما سلف متفَرّعٌ عنها، كقياسه بكل معجز، ونقض العادة في الكلام المعروف لديهم (شعرا ونثرا)، ، فاشتماله على خصائص الشعر

[1] صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ط 04 2000، دار العلم للملايين بيروت، ص 46 .
[2] ينظر، الرماني، مصدر سابق ، ص 75.

والنثر، أخرجتْه منهما وأكسبته صفة "الأسلوب القرآني" المقصورة عليه، ففواصل القرآن تحتوي على إيقاعات متناغمة، تفوق التي في القصائد الشعرية والكلام المنثور المسجوع، إذ الفواصل فيه تبعٌ للمعاني، والمعاني في غيره تبع للفواصل أو القوافي، والبون شاسع لا يخفى، تبديه لك أراجيف مسيلمة الكذاب، وتراهات الكندي وخرافات سجاح ...الخ التي لا ترقى بداية لتكون مُعارَضة للقرآن.

وكذلك القول في قياسه بكل معجز، فإن الله سبحانه بعث أنبيائه وأيدهم بمعجزات وِفاقا لما برع فيه أقوامهم، أما نبينا فبعثه للناس كافة وخاتِمًا للرسل، مُؤيَّداً بمعجزة القرآن خلافا للمعجزات المادية، (كخروج إبراهيم عليه السلام من النار سالما، وقلب العصا حية لموسى عليه السلام، وإحياء الموتى لعيسى عليه السلام) وضمّنه سبحانه ظواهر الإعجاز من كل جوانبه، والبيان الذي برع فيه العرب أولها، ليُتخذَ القرآن منهجا للحياة بشرائعه وتشريعاته التي ارتضاها سبحانه لعباده كما قال سبحانه ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ المائدة 03.

أمّا الصرفة التي عدّها المعتزلة من وجوه الإعجاز، (أي أن الله صرف الهمم عن معارضته) فقول شَطِطٌ مُنْكَرٌ معدولٌ عنه، إذ كيف يُعقلُ أن يُدْعُوا إلى معارضة ما هم مصرفون عنه، وما لا طاقة لهم به، والله سبحانه يقول "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها" وقد دعاهم إلى الإتيان بمثله "فاتوا بسورة مثله"، ثمّ إن المشهود من أحوالهم وطبائعهم عدم التسليم لمقرّعهم كائنٌ من كان، فلو كان الأمر كما زعموا، ما حاول عبثا مُدعوا النبوة الإتيان بمثله، فقد ذكر ابن عطية أن أصحاب الكندي قالوا له: «أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، قال: نعم سأعمل لكم مثل بعضه، فاحتجب عنهم أياما ثم خرج فقال: والله ما أقدر عليه. ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة فنظرت فإذا هو قد أمر بالوفاء ونهى عن النكث وحلل تحليلا عاما ثم استثنى استثناء بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يستطيع أحد أن يأتي بهذا إلا في أجلاد»[1]، أي أسفار، وقد أسهب الجرجاني في رسالته الشافية في إبطال هذا الزعم.

[1] أبو محمد ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح عبد السلام عبد الشافي محمد، ط01 (2001) دار الكتب العلمية، ص145 .

وقد يبدو للوهلة الأولى، أن باب الاجتهاد في إعجاز القرآن البياني أُوصدَ، وأن المتقدمين ما تركوا للمتأخرين فيه شيئاً، لبُعد الشِّقة بينهم وبين العربية، بيد أن ذلك يُنافي استمرار المعجزة القرآنية في كل العصور، فقرائح الباحثين لا تزال تلتقط الجواهر المكنونة من بحر القرآن الزاخر، وإن اتخذتْ من درر السابقين مَدارِجَ لإدراك الإعجاز البياني، وما تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور، وتفسير الظلال والتصوير الفني للسيد قطب، وخواطر الشيخ الشعراوي عنا ببعيد.

تضيق الطرق بالناس إن كثروا وهذه بالناس في الزحام تتسع

ولربما كانت الظواهر الصوتية بموضوعاتها المنوعة، لدى المحدثين أعمق دلالة وأثراً، نظرا للاهتمام الذي يشهده هذا النوع من الدراسات عندهم، ولما يُخلّفه الإيقاع الصوتي من حُسن في التراكيب حال تجانسه مع الحروف، خاصة إن كانت تلك التراكيب مشتبهة المبنى مختلفة المعنى، بحيث تُقسم إلى أقسام متوازية يجمعها بعضها التشابه أو التغاير الدلالي، في نسق يُصطلح عليه التوازي، ومنه قول ربنا ﴿إذا زُلزلتْ الأرض زلزالها. وأَخرجتْ الأرض أثقالها ﴾ الزلزلة 1-2، فالآيتان متوازيتان متشابهتان (الأولى تعنى الحركة والاضطراب، ونُسب الفعل فيها لفاعل مجهول، والثانية ناتجة عنها ونُسب فعل الإخراج فيها لفاعل معلوم) وكلتاهما حينما تستثني ظرف الزمان الاستقبالي "إذا" تجد أن بناءها وفق المخطط الآتي:

فعل رباعي + ضمير التأنيث (ت) + اسم (الأرض) + اسم خماسي + ضمير (الهاء)

ومنه قوله تعالى:﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ القصص73، والآية تصور مشهدين متغايرين يحققهما الطباق وبناؤهما وفق المخطط الآتي:

المشهد الأول:"حرف العطف "و"+ حرف الجر "من"+ اسم مجرور "رحمة"+ الضمير "ه" + الفعل "جعل" + لكم + اسم "الليل" + لام التعليل + فعل مضارع "تسكن"+ الفاعل"وا" + من فضله ولعلكم تشكرون"

المشهد الثاني:" حرف العطف "و"+ حرف الجر "من"+ اسم مجرور "رحمة" + الضمير "ه" + الفعل "جعل" + لكم + اسم "النهار" + لام التعليل + فعل مضارع "تبتغي"+ الفاعل"وا" + من فضله ولعلكم تشكرون"

فالطباق بين (الليل ≠ النهار/ لتسكنوا ≠ لتبتغوا) في الآية لخّص مشهدين في إيجاز بديع، ومن ثمّ تبرز أهمية دراسة التوازي في النص القرآني بوجه أخص، وفي النصوص الأدبية بوجه عام، فهو يُغني عن كثير من الدلالات التي يمكن تلخيصها، بإيراد قواعد نحوية وصرفية، وأخرى بلاغية لاسيما صور البديع كالطباق والجناس...الخ، كما يمكن أن يصير منهجية وصفية وتحليلية للخطاب.[1]

فنسق التوازي بخصائصه البديعة، يساير التراكيب القرآنية كلها، وهو بيّن جلي في القرآن المكي القصيرة فواصله، ودقيق خفيّ في القرآن المدني الطويلة فواصله، من أجل ذلك جاء هذا البحث ليُجلي جمالية الظاهرة في السور المدنية.

وقبل الشروع في ذلك لابد من وقفة سريعة، مع مبحث شهير في دراسات علوم القرآن هو مبحث "معرفة مكان وزمان النزول".

وإنه لمن أجلّ ما اعتنى به الأوائل عناية فائقة، ، لأن القرآن كما هو مقرر نزل نُجما، قال سبحانه ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ الفرقان 32، فمنه المكي والمدني، والمحكم والمتشابه، وما نزل ليلا وما نزل نهارا، وما نزل في السفر والحضر... لحكم بالغة أشار إليها علماء القرآن في تصانيفهم.

ومعلوم أنّ النبي ﷺ أقام ردحا من الزمن بمكة، بين ظهراني المشركين يدعوهم للإسلام وهم آنئذ كثير، وشوكتهم يومها عصية على مخالفيهم، غير أنها لم تجدِ نفعا أمام التأييد الإلهي لنبيه، من أجل ذلك ساموا النبي والمؤمنين أشد العذاب، بغية سحق الدعوة ومنعها من الذيوع، وإن استيقنتها نفوسهم وأقرتها فطرتهم، وما تكرار مبيتهم يستمعون القرآن إلا دليلا صادقا على ذلك.

ثم هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، بعدما آيس من إخبات قلوب الكفار، وبعدما آنس نور الهداية يسري في أفئدة الأنصار، فآخى بين المهاجرين والأنصار، وبنى مسجده الذي أقيمت فيه دولة التوحيد، فكان ذلك إيذانا ببدء مرحلة جديدة تتطلب أسلوبا ألطف عن سابقه، ومن هنالك انطلقت الدعوة حتى عمّت مشارق الأرض ومغاربها، إلى أن توفى الله عز وجل نبيه الكريم وقد أقام بالمدينة عشر سنين.

1 ينظر محمد مفتاح، التلقي والتأويل، ط01 (1994)، المركز الثقافي المغربي، المملكة المغربية، ص 159.

وليس يخفى الفرق بين قرآن المرحلتين – المرحلة المكية والمرحلة المدنية – فلكل منهما خصائص ينفرد بها، تبعا لاختلاف طبائع المخاطبين في كل مرحلة، وكُتُب علماء القرآن بيّنت ذلك بيانا يجلو الإبهام عن الأفهام، ولو أنهم قد اختلفوا في الضابط الذي يُعرِّف بقرآن وعدد سور كل مرحلة، لكنهم مُجْمعون على أن معرفة المكي والمدني من أهم علوم التنزيل، وعليه مدار بعض العلوم الأخرى كالناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول...الخ، يقول السيوطي: " من أشرف علوم القرآن، علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة في أهل المدينة، وما نزل بالمدينة في أهل مكة، وما يشبه نزول المكي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكي، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالحديبية، وما نزل ليلا، وما نزل نهارا، وما نزل مشيعا، وما نزل مفردا، والآيات المدنيات في السور المكية والآيات المكيات، في السور المدنية، وما حمل من مكة إلى المدينة، وما حمل من المدينة إلى مكة، وما حمل من المدينة إلى أرض الحبشة، وما نزل مجملا، وما نزل مُفسّرا، وما اختلفوا فيه فقال بعضهم مدني وبعضهم مكي، فهذه خمسة وعشرون وجها من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى "[1] وما تقدم لا يترك مظِنة للريب في النفس .

والعلماء لهم في إدراك ذلك ثلاثة أقوال كما يقول الزركشي:" اعلم أن للناس في ذلك ثلاثة اصطلاحات: أحدها: أن المكي ما نزل بمكة والمدني ما نزل بالمدينة، والثاني: وهو المشهور أن المكي ما نزل قبل الهجرة وإن كان بالمدينة والمدني ما نزل بعد الهجرة وإن كان بمكة، والثالث: أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة..."[2] وقد وضعوا قواعد عامة تُمكّن الباحث من تبيُّنِ السور المكية من المدنية، مرجعها الأساس الخطاب (مراعاة مقتضى الحال) وسنشير إليها لاحقا استنادا للقول المشهور المذكور أعلاه .

اختلف العلماء في عدد السور المكية والمدنية، فالسيوطي يرى أن عدد المدنية عشرون، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك فهو مكي، فالمدنية عنده (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال،

1 السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ج01، دط (1974)، دار الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 36

2 الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ج01، ط 01 (1957)، دار إحياء الكتب العربية سوريا، ص 187

التوبة، النور، الأحزاب، محمد ﷺ، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم، النصر) والمختلف فيها اثنتا عشرة سورة هي (الفاتحة، الرعد، الرحمن، الصف،التغابن، المطففين، القدر، البينة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، الناس)، وما تبقى فهو مكي وعدد اثنان وثمانون سورة [1]، غير أننا في هذا المقام سنتجاوز ذلك الخلاف لنعتمد التقسيم المتّبع في المصاحف المغاربية برواية ورش عن نافع، فتكون السور المدنية ثمانية وعشرين، بإضافة ثماني سور للسور المدنية المذكورة سابقا وهي (الرعد، الحج، الرحمن، الإنسان، الصف، التغابن، البينة، الزلزلة) وما تبقى فهي سور مكية وعددها ستة وثمانون سورة.

أ: ضوابط السور المكية :

السور المكية على المشهور من الأقوال هي ما نزل قبل الهجرة، وعددها ستة وثمانون سورة، وتمتاز بقصر سورها وآياتها، وشيوع جو الدعوة إلى التوحيد، مع قوة جرس ألفاظها ووقعها الشديد على النفس، وبإيجاز عباراتها مع بلاغة معانيها ووفائها لها، مراعاة لمقتضى أحوالهم، وذلك لأن القوم في مكة كانوا معاندين لا يسمعون القرآن بل يصدون عنه، فناسب الخطاب الموجز الرادع، قلوبهم الغُلف ومنه على سبيل التمثيل لا الحصر، الآيات النازلة في عم النبي أبي لهب وزوجِــه حينما أخذتهما العزة بالإثم، لنكران ما استقر من الحق: قال سبحانه ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ سورة المسد، ومن ضوابطها [2]:

01 كل سورة فيها "كلا" فهي مكية.

02 كل سورة فيها سجدة تلاوة فهي مكية.

03 كل سورة مبدوءة بقسم فهي مكية

04 كل سورة مفتتحة بأحرف التهجي فهي مكية سوى البقرة وآل عمران فهما مدنيتان والخلاف في الرعد

05 كل سورة فيها يأيها الناس وليست فيها يأيها الذين آمنوا فهي مكية إلا سورة الحج

06 كل سورة مفتتحة بـ"الحمد" فهي مكية.

1 ينظر السيوطي، مصدر سابق، ص 39.

2 ينظر فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن الكريم، ط 12 (2003)، المكتبة الشاملة الالكترونية، ص 130.

07 كل سورة فيها قصص الأنبياء ما عدا البقرة.

ب: ضوابط السور المدنية:

السور المدنية على المشهور هي ما نزلت بعد الهجرة وعددها ثمانية وعشرون سورة، وتمتاز بطول آياتها وسورها، لأنها تبسُطُ العقائد الإسلامية والأحكام التشريعية، فغالب أهل المدينة مسلمون يقبلون على سماع القرآن، فالمقام ليس مقارعة ولِجاجا يناسبه الإيجاز بل مقام إقبال وإذعان يناسبه الطول والاسترسال[1] ومثاله ما نزل تلطّفا بالمسلمين ودعوتهم للخشوع والإحساس بالقرآن في قوله جل وعلا ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ الحديد 16 . ومن ضوابطها:

01- كل سورة فيها يأيها الذين آمنوا وليس فيها يأيها الناس فهي مدنية إلا العنكبوت.

02- كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهي مدنية.

وقد يتبادر إلى الأذهان سؤال عن جدوى معرفة مثل هذا النوع من العلم –المكي والمدني- ؟ ثم ما يلبث أن يأتي الجواب واضحا دافعا الظنون والأوهام، إذ به تُعرف الحكمة من التدرج في الأحكام، وبه يُعرف الناسخ من المنسوخ، فيُزال التعارض الذي قد يبدو بين الأحكام، ثم إن تفسير القرآن وفهم دلالات الآيات وإشاراتها وأسرارها لا يتم إلا إن استحكم المفسّر في علم المكي والمدني، وكفى بتلك الفوائد شاهدا على أهمية هذا العلم.

ومهما يكن الأمر فإن القرآن معجز، سواء أكان مكيا أم مدنيا، لأنه كلام الله سبحانه، وليس الجَاهِل لعلم المكي والمدني فَاقداً القدرة على الشعور بالإعجاز، فَقَدْ سمعنا كثيرا عن أعاجم يبكون بمجرد سماعهم آيات من الذكر الحكيم، وحين يسألون عن سبب بكائهم؟!، يجيبون أبكاني الشجى ... !، وهو

1 ينظر فهد الرومي، نفسه، ص 130.

ذاك الصوت الطيب النغمة المصحوب بهـمٍّ وحزن [1]، فللقرآن إذا نغم موسيقى فريد تحسه النفس في ظلال الطمأنينة النازلة على القلب قال تعالى: "ألا بذكر الله تطمئن القلوب" الرعد 28.

والقرآن بنظمه البديع يحوي هندسة إيقاعية لا تجدها إلا فيه، تُظهِر في حسن تلاوته، عذوبةَ نغمتِه، ومشاكلةَ معانيه لألفاظه، وتجانسَ أصوات آياته وفواصلها لإيقاعها الصوتي، ومناسبة ذلك كله للدلالات العامة لسوره، وإنك لتقعُ على بناء متواز عجيب، يصنعه التشابه أو التغاير في الآيات كما قال سبحانه ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الزمر 23 فالتوازي بجميع مستوياته ظاهرة سافرة في التعبير القرآني، لاسيما في السور المكية القصيرة في فواصلها الشديدة في أسلوبها، وهذا لا يعني خلو السور المدنية منه، فرغم طول آياتها ولطف أسلوبها الموجّه للمسلمين في أغلبه، فإن التوازي باد فيها وله سمات بلاغية تتناسب ودلالات موضوعاتها، لأن تقرير الأحكام يقتضي تكرار بعض التراكيب ولكن بـأغراض متعددة، فسورة القدر مثلا تكررت فيها " ليلة القدر" ثلاث مرات ولكن بمقاصد منوعة ففي الأولى شرفها سبحانه " فجعلها مبدأ الوحي ... وأعيد اسم ليلة القدر ... على خلاف مقتضى الظاهر لأن مقتضى الظاهر الإضمار، فقصد الاهتمام بتعيينها، فحصل تعظيم ليلة القدر صريحا، وحصلت كناية عن تعظيم ما أنزل فيها وأن الله اختار إنزاله فيها ليتطابق الشرفان ... وتفضيلها بالخير على ألف شهر إنما هو بتضعيف فضل ما يحصل فيها من الأعمال الصالحة "[2] فالتوازي كما يقول الدكتور محمد مفتاح " يحقق تناظرا وتناغما وتناسبا، إنه حجة إقناعية "[3]، بما يجمع من خصائص صوتية وصرفية وتركيبية ودلالية تؤهله ليكون وسيلة لتحليل النصوص الأدبية عامـة.

لم ولن ينته القول في الإعجاز بعد، "لأنّ التعبير الواحد قد ترى فيه إعجازا لغويا جماليا، وترى فيه في الوقت نفسه إعجازا علميا أو تاريخيا أو نفسيا أو تربويا أو تشريعيا...الخ، ولولا أنّ المقام لا يسمح بأكثر لأفضنا القول فيه، ولكن حسبنا ما جاءت به الآثار، عن النبي المختار من جوامع كَلِمِهِ "كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن

1 ينظر ابن منظور، لسان العرب، ج12، ط03 (1993) دار صادر بيروت، ص 234.
2 الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج30، دط (1984)، الدار التونسية، تونس، ص 457.
3 محمد مفتاح، مرجع سابق، ص 151.

ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء،ولا يَخْلُق على كثرة الردّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا:﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد﴾ الجن 02 من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم "[1].

من أجل ذلك جاء هذا البحث مستكنهاً أثر التوازي في تحديد بلاغة تراكيب السور المدنية فأسال الله التوفيق والسداد.

1 أبو عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تح إبراهيم عطوة عوض، ج05، ط 02 1975، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، ص 172

الفصـــــل الأول:

المفهـــــوم والأهميـــــــة

المبحث الأول: ضبط المفهوم وتحديد الأهمية.

المبحث الثاني: تأصيل المفهوم في الدراسات البلاغية .

المبحث الثالث: أشكال التوازي في القرآن الكريم

المبحث الأول: ضبط المفهوم وتحديد أهميته:

أ: مفهوم التوازي: لغـــــة:

تحصي المعاجم العربية لمـادة **"وزي"** عـدة معـان تختلـف باختلاف استعمالاتهـا في السياق فقد جاء في اللسان: "وزى الشئ يزي: اجتمع وتقبض، والوزي: القصير من الرجال الشديد الملزز المقتدر... والمستوزي المنتصب المرتفع. واستوزى الشيء: انتصب وأوزى ظهره إلى الحائط: أسنده، ويقال: أوزيته أشخصته ونصبته، وزى فلانا الأمر أي غاظه، والوزى الطيور؛ قال أبو منصور: كأنها جمع وز وهو طير الماء، والموازاة: المقابلة والمواجهة قال أبو البحتري: فوازينا العدو وصافيناهم. والأصل فيه الهمزة، يقال آزيته إذا حاذيته"[1]

وتقول: "فلانٌ بإزاء فلان، إذا كان قِرْناً له"[2].

وما يهمنا من تلك المعاني وغيرها هو معنى "المواجهة والمقابلة" إذ هو المعنى القائم عليه مفهوم التوازي.

واللفظة بجميع اشتقاقاتها غير واردة في القرآن الكريم، لكنها في الحديث النبوي شائعة منتشرة، ومن ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن الزهري: "قال أخبرني سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: غزوت مع رسول الله ﷺ قبل نَجْدٍ فوازينا العدو فَصَافَفْنَا لهم"[3] غير أنها في جميع الأحاديث لا تكاد تخرج عن معنى المقابلة والمواجهة لورودها في باب صلاة الخوف .

والذي يظهر لي –والله أعلم– أن إهمال ذكر المصطلح في التنزيل، لا يلغي أهميته بقدر ما يشير إليها، وإلا فكيف نفسر التوازي البادي في التراكيب القرآنية ؟ ولربما كان التّرْكُ هو الذي وسّع المفهوم وأكسبه جمالية مبهرة، ولو أنّه ذُكر لكان قُيّد بحدود ما ورد في النصوص.

---

[1] ابن منظور، مصدر سابق،ج15، ص 391 .

2 الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، ج07، دط، دار الهلال، ص 399.

3 محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح محمد زهير بن ناصر الناصر، ج05، ط01 (2001) دار طوق النجاة، ص144.

على أن التوازي ظاهرة بادية أيضا في تراكيب الأحاديث النبوية، ومن أمثلته قول النبي ﷺ « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ كُلَّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رَحْمَتِهِ لَمْ يَيْأَسْ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنِ النَّارَ» [1]، فانظر كيف قابل صلى الله عليه وسلم بين الكافر اليائس والمؤمن الراجي، فلا ريب إذا أن ظاهرة التوازي جلية في الحديث الشريف كذلك، وقد أُلِّف في هذا الصدد كتاب للدكتور "إبراهيم محفوظ" سماه "التوازي في الحديث النبوي الشريف".

ب: اصطلاحا:

أصل مصطلح التوازي هندسي صِرْفٌ، انتقل إلى الدراسات الأدبية مع كثير من المفاهيم الرياضية والعلمية، بفعل حركة الأخذ والعطاء المتبادلة بين العلوم والفنون، ولقد عُرف بتعاريف متعددة تعكس في مجملها وجهة نظر كل دارس ورؤيته، غير أنها تلتقي في مقاصدها النهائية إلى شبه إجماع في فهم أصحابها لمصطلح التوازي. ومن أدق تعاريفه:

*التوازي عبارة عن تماثل قائم بين طرفين من السلسلة اللغوية نفسها، وقد فسّر ذلك بأن هذين الطرفين عبارة عن جملتين لهما البنية نفسها بحيث تكون بينهما علاقة متينة تقوم إما على أساس المشابهة أو على أساس التضاد[2].

*وعرف كذلك بأنه "بمثابة متواليتين متعاقبتين أو أكثر لنفس النظام الصرفي والنحوي المصاحب بتكررات وإيقاعات صوتية أو معجمية ودلالية"[3].

*وعرفه الدكتور فاضل ثامر بأنه "نسق التقريب والمقابلة بين محتويين أو سردين بهدف البرهنة على تشابههما أو اختلافها ويتم التشديد على تطابق أو تعارض الطرفين بواسطة معاودات إيقاعية أو تركيبية"[4]

[1] أبو بكر البيهقي، الأسماء والصفات، تح: عبد الله الحاشدي، ج02، ط01 1993، مكتبة السودي، السعودية، ص 455 .
[2] محمد كنوني، التوازي ولغة الشعر، مج فكر ونقد، ع 18 (1999) ، ص 79 .
[3] محمد كنوني، نفسه، ص80.
[4] عبد الله الجياني، التوازي التركيبي في القرآن، رسالة ماجستير، كلية الآداب بغداد 2004 ص07.

وأشهر تعريفات التوازي حسب ما ذكر الدكتور محمد مفتاح هي: "تشابه البنيات واختلاف المعاني"[1]، وهذا التعريف متشابه إلى حد كبير مع مصنف تقيّ الدين الدقيقي[2] (ت613هـ) الذي سماه "اتفاق المباني وافتراق المعاني" وهو تأليف يبحث عن الفروق اللغوية لمعانٍ مفترقاتٍ يعبر عنها بألفاظٍ مختلفاتٍ، ومعانٍ متفقاتٍ يعبر عنها بألفاظٍ متباينات، ومعانٍ مفترقاتٍ يعبر عنها بألفاظ متفقاتٍ[3]، بمعزلٍ عن تراكيبها وسياقاتها.

*ومن تعريفاته كذلك بأنه "توازن المنطلقات على مستوى التطابق والتعارض"[4].

والملاحظ من التعريفات الاصطلاحية السابقة، اتفاقها في وقوع التوازي بين تركيبين لغويين أو أكثر تجمع بينها علاقة التشابه أو التضاد المُجسَّدة بالإيقاعات الصوتية التكرارية، مما يحقق تماسك النص وانسجامه.

[1] ينظر إبراهيم الحمداني، بنية التوازي في قصيدة فتح عمورية، مج كلية التربية الأساسية، ع13 (2013)، ص 07.

[*] هو سليمان بن بنين بن خلف بن عوض، تقيّ الدين الدقيقي مصري، عالم بالأدب توفي بالقاهرة عام 613هـ، له مصنفات، منها: اتفاق المباني وافتراق المعاني، آلات الجهاد وأدوات الصافنات الجياد .

[3] تقي الدين الدقيقي، اتفاق المباني وافتراق المعاني، تح: عبد الرؤوف جبر، ط01 (1985)، دار عمان الأردن، ص02.

4 عبد الله الجياني، مرجع سابق، ص07.

ج: أهمية التوازي:

تتمايز اللغة الفنية في مبناها ومعناها عن اللغة العادية تمايزا واضحا، يسهم فيه احتكامها لمنظومةِ قواعدَ متناسقةٍ، تُفْرِغُ الألفاظُ في قوالبها دلالاتِها، وتُصْحِبُها بمحسنات لفظية ومعنوية من علم البديع، من شأنها إثارة المتلقي بتحسين الدلالات، والإسهام في كشف جمالية إيقاعات تراكيبها.

واللغة الشعرية الإيقاعية الراقية إنما يحصل لها ذلك، عندما تكون بنياتها متشابهة ومعانيها مختلفة، لتتجلى فيها أهمية التوازي، بعدّه قانونا مُهِماً من قوانين الإيقاع، يحتفي بالهندسة الصوتية والدلالة اللفظية وزخارفها على حدّ سواء، حيث تصبح الدوال ومدلولاتها في سياقاتها مترابطة متماسكة، تبْرُزُ من خلالها مواقع الجمال في اللغة الشاعرة شعرا كانت أو نثراً، فالتوازي "يتخذ من اللغة التي رافقت الإنسان مذ صارت له وسيلة للتواصل نقطة انطلاق ووصول في الآن نفسه"[1] ينطلق منها مركّبا بين ألفاظها، ليعود بها ذات رونقٍ بهي أخّـــاذٍ، وهو بهذا يتمظهر في كل مستوياتها، الصوتية والنحوية والدلالية، أي أنه شامل لبنية النص كلها[2].

ومنه يمكننا الزعم أن نسق التوازي له أهمية كبيرة في تماسك النص وانسجامه "لأنه عنصر تأسيسي وتنظيمي في آن واحد[3]، تبرز أهميته في جملة التناسبات المستمرة على مستويات متعددة : في مستوى تنظيم البنى التركيبية، وفي مستوى تنظيم الأشكال والمقولات النحوية، وفي مستوى تنظيم الترادفات المعجمية وتطابقات المعجم التامة، وفي مستوى تنظيم تأليفات الأصوات والهياكل التطريزية وترتيبها ، مما يكسب الأبيات المترابطة بوساطة التوازي في هذا النسق انسجاماً واضحاً وتنوعاً جلياً في الآن نفسه ، إن القالب الكامل يكشف بوضوح تنوع الأشكال والدلالات الصوتية والنحوية والمعجمية[4] .

---

1 عبد الواحد الشيخ، البديع والتوازي، ط01(1999)، مكتبة الإشعاع الفنية، القاهرة، ص07.

2 وهاب داودي، البنيات المتوازية في شعر مصطفى محمد الغماري، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة الجزائر، ع 10 (2014) ص 311.

3 محمد مفتاح، التلقي والتأويل، ص149 .

4 ينظر : رومان ياكوبسون، قضايا الشعرية، ترجمة : محمد الولي، و مبارك حنون، ، ط1 (1988)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب ص106.

واستنادا لما سلف بيانه عُدّ التوازي ظاهرة خطابية شاعرية قديمة، تشهَد له بذلك النصوص الموروثَة عن السلف قبل الخلف، ومنها في النثر على سبيل التمثيل لا الحصر قول 'قس بن ساعدة الأيادي ' في خطبته الشهيرة " أيها الناس اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ...إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً... يقسِمُ قِسٌّ بالله قسما لا أثم فيه، إن لله دينا هو أرضى له، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه"[1]، يعدّ هذا المقطع أشهر نصّ خطابي موروث، اعتمد فيه صاحبه على التقسيم المتوازي في البنى التركيبية، حيث عمد إلى ما ينتجه الترادف والتضاد في البنى المعجمية، ثُمّ ما يُفرِزه البناء النحوي من إيقاعات صوتية متساوية، لتمكين كلامه في نفوس مُخاطَبيه.

أمّـــا في الشعر فهو ظاهرة أبرز من أن يستدل له، إذ الشعر العربي كله شعر التوازي حسب ما قُرر في الآثـار، ومنه قول " زهير" في معلقته:

رأيتُ المنايا خبط عشواء مـن تصب تُمِتْـــهُ ومن تخطئـه يعمـر فيهرم

وأعلـــم ما في اليوم والأمس قبلـــه ولكننـي عن علم ما في غد عمي

فالشاعر انصرف إلى مقابلة بين الأشياء بمستلزماتها، ليُشْرِكَ المتلقي معه في خبراته ويقنعه برأيه، عبر قناة الخطاب التي أساسها التأثير والتأثُر.

ولا تزال الثنائيات التركيبية ماثلة في خطاباتنا إلى يوم الناس هذا، ومرجع هذه الاستمرارية؛ الطبيعةُ النفسية الميّالة لحب التعابير التي تُعزى في جوهرها للتناسب والتشابه أو التعارض والتغاير، بغية تذوق الجمال اللفظي والتناغم الإيقاعي للغة الشعرية.

والحق أن القرآن الكريم أولى ظاهرة التوازي أهمية بالغة في تراكيبه البديعة، باشتماله على خصائص نثرية وأخرى شعرية، تتجسد في موسيقاه الرفيعة التي تنبّه لها الناس منذ قديم الزمان، يقول سيد قطب "إن النسق القرآني قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعا، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحَّدة والتفعيلات التامة؛ فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة، وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقي

1 أبو هلال العسكري، الأوائل، دتح، ط01 (1987)، دار البشير طنطا، مصر، ص 67.

الداخلية، والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل، والتقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي، ... ، فنشأ النثر والنظم جميعًا"[1]، ويضيف مجيبا على فضول علمي يخطر في البال؛ فحواه ما سبب اختلاف الإيقاع الذي يحسه المرتل ؟ "حيثما تلا الإنسان القرآن أحسّ بذلك الإيقاع الداخلي في سياقه، يبرز بروزًا واضحًا في السور القصار، والفواصل السريعة، ومواضع التصوير والتشخيص بصفة عامة، ويتوارى قليلًا أو كثيرًا في السور الطوال،... ولكنه –على كل حال– ملحوظ دائمًا في بناء النظم القرآني[2]، الذي ما غادر صغيرة ولا كبيرة من الظواهر اللغوية، إلا وله في جلاءها حصة الأسد.

فلا عجب إذاً؛ حين نزعم أنّ التركيب القرآني مبني وفق توازٍ بديع، وأن التوازي يهيمن على قوانين الإيقاع ويتداخل معها، حتى لا تكاد ترى غيره في التراكيب الثنائية بجميع مستوياتها (الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية...) وفي الوقت ذاته، يبدو أثـره في الفواصل والقوافي وحروفهما، بما تخلفانه من جرس موسيقي محسوس في التعبير القرآني خاصة، وسائر الأعمال الأدبية عامة.

1 سيد قطب، التصوير الفني، ط 17، دار الشروق، مصر، ص 103.

2 سيد قطب، نفسه ص 103.

المبحث الثاني: تأصيل المفهوم في الدراسات البلاغية:

أ: في الدراسات البلاغية العربية

- **عند البلاغيين القدامى:**

إن المتصفح لكتب التراث يجدها حافلة بظواهر لغوية قيمة، تنبّه لها المحدثون مع تطور الدراسات الأدبية، وهي وإن لم تُفصِّل الحديث عنها، فقد أجملتْهُ وأومأتْ إليه إماءاتٍ دالة خاطفة، يحتاج معها الباحث إلى بُعد نظر وعمق تحليل لفهمها، وعند القيام بتأصيلها في تلك الكتب، تصادفك مجموعة من المصطلحات البلاغية التي تضبط النص وتتحكم في سيرورته، تتشابك فيما بينها لتشكيل بنيته الدلالية، سُمِّيتْ في القرآن إعجازا وفي غيره مصطلحات شعرية " فالبلاغة العربية القديمة احتفلت بهندسة البيت الشعري احتفالا كبيرا، وراعت أن تكون عناصر البيت الشعري التركيبية والصوتية متساوية إلى حد بعيد، فهناك تماثلات وتقابلات تُعمّق هندسة البيت الشعري، وربما تمتد هذه العناصر لتشمل أكثر من بيت، أو تتوسع دائرتها لتشمل مقطعا أو مقاطع من القصيدة"[1]، إذ الشعر هو ديوان العرب.

ولعل التوازي من أبرز تلك الظواهر التي اتسم بها الشعر العربي القديم عامة، تحدث عنه القدامى في مصنفاتهم أثناء حديثهم عن السجع وأنواعه، فقدامة بن جعفر مثلا (ت 337هـ) يقول "وأحسن البلاغة: الترصيع والسجع، واتساق البناء، واعتدال الوزن، واشتقاق لفظ من لفظ، وعكس ما نظم من بناء، وتلخيص العبارة بألفاظ مستعارة، وإيراد الأقسام موفورة التمام، وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة، وصحة التقسيم باتفاق النظوم، وتلخيص الأوصاف بنفي الخلاف، والمبالغة في الرصف بتكرير الوصف، وتكافؤ المعاني في المقابلة، والتوازي، وإرداف اللواحق وتمثيل المعاني"[2].

1 إبراهيم الحمداني، بنية التوازي في قصيدة فتح عمورية، مج كلية التربية الأساسية ع 13 (2013) ، ص 23.

2 علي صبح، الصورة الأدبية تاريخ ونقد، دط، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ص29 .

وقول قُدامة الآنف يتناول ضوابط البلاغة وما يُظرّف المعاني ويُحسّن الألفاظ، وهو وإن جاء مجملا دون تفصيل، ودون تحديد دقيق لمفهوم التوازي، لكنه نافٍ ما ذهب إليه الدكتور موسى ربابعة حين قال "ولم تذكر كتب النقد والبلاغة العربية القديمة مفهوم التوازي بنصه وحرفه"[1].

وقبل الشروع في تبيان ماهية التوازي عند القدامى، من خلال ما وقفتْ عليه الدراسات المؤصّلة للموضوع عندهم، نشير إجمالا إلى أنهم عدّوه ضربا من علم البديع، يدرس مع موضوعاته المنوعة، ولهم في ذلك نظرتان:

أولهما: للجمهور: حين عدوه ضربا من السجع لا ينفك عنه، وتحدثوا في معرض حديثهم عن أنواع السجع، مع اختلاف طفيف قال به ابن الأثير، وسيأتي التفصيل.

ثانيهما: للكفوي: عده ضربا من المشاكلة اللفظية، وتحدث عنه أثناء تعريفه لها.

فالجمهور: مثل أبي هلال العسكري (ت 395هـ) وابن الأثير (ت 637هـ) والنويري (ت733هـ) والقزويني (ت 739هـ) والشريف الجرجاني (ت 816هـ) والسيوطي (ت 911هـ) ذهبوا إلى أن التوازي قسم من السجع قال النويري: " والسجع أربعة أنواع وهى: الترصيع والمتوازي والمطرّف والمتوازن. أما الترصيع: فهو أن تكون الألفاظ مستوية الأوزان متّفقة الأعجاز، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ﴾... وأما المتوازى: فهو أن يراعى فى الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزن مع اتفاق الحرف الأخير منهما، كقوله عزّ وجلّ: ﴿فِيها سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾...وأما المطرّف: فهو أن يراعى الحرف الأخير فى كلمتى قرينتيه من غير مراعاة الوزن، كقوله تعالى: ﴿ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً﴾... وأما المتوازن فهو أن يراعى فى الكلمتين الأخيرتين من القرينتين الوزن مع اختلاف الحرف الأخير منهما، كقوله تعالى: ﴿ وَنَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾..."[2]

1 موسى ربابعة، ظاهرة التوازي في شعر الخنساء، مج دراسات العلوم الإنسانية بغداد، ع 15 (1995)، ص2029.

2 شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دتح، ج 07، دار الكتب والوثائق القاهرة، ص105.

وقال صاحب التعريفات في السجع المتوازي "هو أن يراعى في الكلمتين الوزن وحرف السجع كالمحيا والمجرى، والقلم والنسم"[1]

ويتضح مما سلف أن التوازي في النثر يؤدي الوظيفة نفسها التي تؤديها القافية في الشعر، ومرد ذلك إلى الإيقاع الذي تحسه النفس للاتفاق الحاصل بين التجانس الصوتي عند اتفاق الفواصل في الحرف الأخير وكذا التجانس الإيقاعي الناشئ عن اتفاق وزن الفواصل.

أما أبو هلال العسكري (ت 395هـ) فاستعمل التوازي استعمالين:

أولهما: بمعناه اللغوي (المقابلة والمواجهة) قال: "وقال آخر:

جزى الله عنا ذات بعل تصدقت على عزب حتى يكون له أهل

فإنا سنجزيها بمثل فِعالها إذا ما تزوجنا وليس لها بعل

فجعل حاجته وهو عزب بحاجتها وهي عزب ووصاله إياها وهي في عزبتها كوصالها إياه في حال عزبته فقابل من جهة الموافقة "[2]

وثانيهما: أن التوازي جزء من السجع مع توسع في مفهومه حين جعل التوازي مرادفا للتعادل في قوله "والسجع على وجوه فمنها أن يكون الجزآن متوازيين متعادلين لا يزيد أحدهما عن الآخر مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه وهو كقول الأعرابي: سنة جرُدتْ، وحال جهُدتْ، وأيد جمُدت..."[3] ثم جعل التعادل بمعنى التساوي في قوله معلقا على قول الأعرابي " فهذه الأجزاء متساوية لا زيادة فيها ولا نقصان والفواصل على حرف واحد"[4] وانتهى بجعل التوازي تساويا فقال "...فهذه الفواصل متوازية لا زيادة في بعض أجزائها على بعض بل في القليل منها وقليل ذلك مغتفر لا يعتد به"[5]

فهو لا يرى فرقا بين التوازي والتعادل والتساوي بل هي عنده بمعنى واحد، واستعمل كذلك الموازنة بمعنى المعادلة حين قال: "أن تكون الأجزاء متعادلة وتكون الفواصل على أحرف متقاربة المخارج إذا لم

1 الشريف الجرجاني، التعريفات، تح مجموعة من العلماء، ط01 (1983) دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ص118.

2 أبو هلال العسكري، الصناعتين: الكتابة والشعر، تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دط (1998)، المكتبة العصرية بيروت، ص339.

3 نفسه ص 262

4 نفسه ص 262

5 نفسه ص 262

يمكن أن تكون من جنس واحد كقول بعض الكتاب: إذا كنتَ لا تُؤتى من نقص كرم، وكنتُ لا أُوتى من ضعف سبب، فكيف أخاف منك خيبة أمل، أو عدولا عن اغتفار زلل، أو فتورا عن لمّ شَعَثِ، أو قصورا عن إصلاح خلل. فهذا كلام جيد التوازن ولو كان بدل (ضعف سبب) كلمة آخرها ميم ليكون مضاهيا لقوله: «نقص كرم» لكان أجود؛ وكذلك القول فيما بعده" [1]

ونحا ابن الأثير (ت 637هـ) منحى العسكري في عدّه التوازي بمعنى التساوي في معرض حديثه عن الترصيع فقال " فممَّا جاء من هذا النوع منثورًا قول الحريري في مقاماته: "فهو يطبع الأسجاع بجواهر لفظه، ويقرع الأسماع بزواجر وعظه", فإنه جعل ألفاظ الفصل الأول مساوية لألفاظ الفصل الثاني وزنًا وقافية، فجعل "يطبع" بإزاء "يقرع"، و"الأسجاع" بإزاء "الأسماع"، و"جواهر" بإزاء "زواجر"، و"لفظه" بإزاء "وعظه"[2] .

غير أن ابن الأثير (ت 637هـ) خالف العسكري (ت 395هـ) فجعل التوازي فرعا من الترصيع فقال " الترصيع...أن تكون كل لفظة من ألفاظ الفصل الأول مساوية لكل لفظة من ألفاظ الفصل الثاني في الوزن والقافية"[3]

أما العسكري (ت359هـ) فأخرج القرينتين الأخيرتين من الترصيع وقصره على حشو البيت فهو عنده "أن يكون حشو البيت مسجوعا"[4]

وقد حاول السيوطي التوفيق البادي بين سلفه، فجعل التوازي متداخلا مع الترصيع كما يتداخل التوازن مع التماثل* قال في المعترك:" فهو- المتماثل- بالنسبة إلى المرصع كالمتوازن بالنسبة إلى المتوازي"[5]

ورغم ما يبدو من اختلاف بين العسكري (ت395هـ) وابن الأثير (ت 637هـ) واتفاق بين النويري والقزويني (ت 739هـ) والسيوطي (ت 911هـ) فإن الجمع بينهم ممكن: فالتوازي أن تتفق الفاصلتان

1 العسكري، الصناعتين، ص 263

2 ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح أحمد الحوفي، بدوي طبانة، ج01، دط، دار نهضة مصر، ص 259

3 نفسه ص258.

4 العسكري، نفسه، ص 375

*المتماثل: أن يتساويا في الوزن دون التقفية، ويكون أفراد الأولى مقابلة لما في الثانية كقوله وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ. وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. الصافات 117 و 118

5 جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، دتح، ج01، ط01(1988) دار الكتب العلمية بيروت، ص40.

الأخيرتان وزنا وتقفية في حشو البيت، أما التوازن فهو اتفاق الفاصلتين الأخيرتين وزنا دون تقفية، والمتماثل هو أن تتساوى الفاصلتان الأخيرتان في الوزن دون التقفية في حشو البيت. فالتوازي إذًا عند القدامى هو اتفاق الفاصلتين الأخيرتين وزنا وتقفية أما حشو البيت فمنهم من عده توازيا ومنهم ترصيعا.[1]

ولتوضيح ما سلف نعرض بالمخطط الآتي الفرق بين الترصيع والتوازي من وجهة نظر كل طائفة بالبيت الوارد[2] في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري:

فمكارم أوليتها متبرعا وجرائم ألغيتها متورعا

1 عبد الله الجياني، ينظر التوازي التركيبي في القرآن، رسالة ماجستير، ص 12،

2 البيت لابن حيوس وهو محمد بن سلطان بن محمد من شعراء الفاطمين.توفي بحلب عام 473 هـ

1ـ الجمهور: جعلوا التوازي في الفاصلتين الأخيرتين مع اعتبار الوزن والقافية، وخصوا الترصيع بحشو البيت:

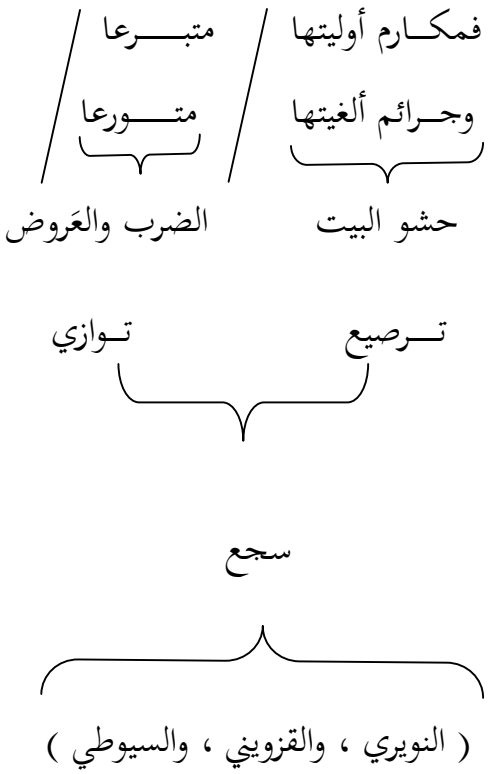

2 أبو هلال العسكري: استعمل التوازي بمعنى المواجهة تارة و أخرى استعمله بمعنى التساوي والتعادل والتوازي:

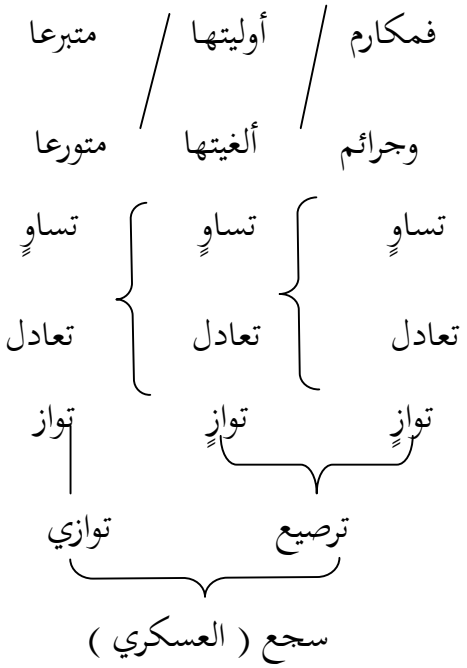

3. ابن الأثير: وافق العسكري في جعل التوازي بمعنى التساوي وخالفه بأن جعل الترصيع أصلا والتوازي فرع منه:

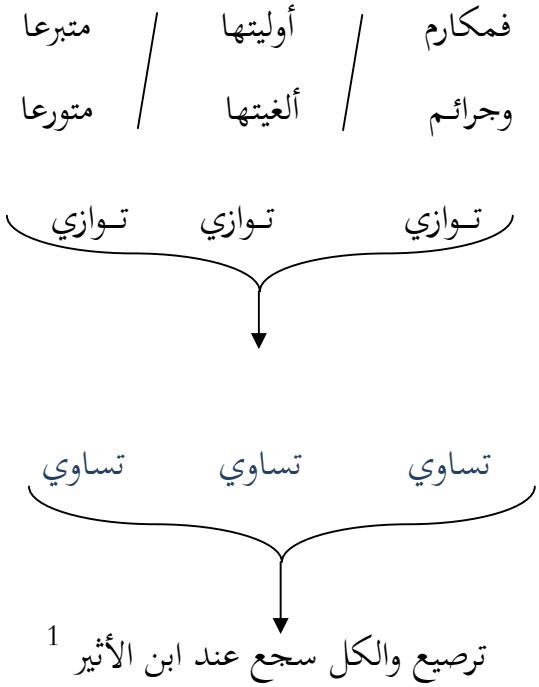

ترصيع والكل سجع عند ابن الأثير [1]

1 ينظر عبد الله الجياني، التوازي التركيبي في القرآن،رسالة ماجستير، ص 13

وقبل أن نُفضي إلى الخوض في تبيين نظرة أبي البقاء الكفوي، أودّ التنويه إلى ما ذهب إليه واحد من متأخري القدامى ألا وهو السجلماسي[1]، الذي وسع مفهوم التوازي حتى إنّه ليمكن القول أن الدراسات الغربية متفرعة عنه، نظرا للتشابه الكبير بينهما.

فهو لم يخرج المصطلح من حيز السجع، غير أنه قـرَنه بالمعادلة والمناسبة، بغية تحقيق التماسك النصي، ولذا أدرجت رأيه مع جمهور البلاغيين القدامى.

فالمعادلة عند السجلماسي: إعادة اللفظ الواحد بنوع الصور فقط في القول، بمادتين مختلفتي البناء مرتين فصاعدا". وهذا النوع... تحته نوعان أحدهما: الترصيع والثاني: الموازنة"[2]

فعرف الترصيع بأنه: "إعادة اللفظ الواحد بالنوع في موضعين من القول فصاعدا، هو فيهما متفق النهاية بحرف واحد" [3] ومعنى قوله الاتفاق في الوزن والتقفية، حتى "تصير الأجزاء وألفاظها متناسبة الوضع، متقاسمة النظم، معتدلة الوزن... ويشترط فيه سهولة المأخذ وعدم التكلف"[4] ومن أمثلته قوله سبحانه " إن الإنسان خُلق هلوعا إذا مسّه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا" المعارج 19- 20-21 فالترصيع في الآية وقع في: هلوعا، جزوعا، منوعا لانتهائها بحرف واحد هو العين، واتفاقها في الوزن.

وعرف الموازنة بأنها " إعادة اللفظ الواحد بالنوع في موضعين من القول فصاعدا، هو مختلف فيهما مختلف النهاية بحرفين متباينين، وذلك أنه تصيير أجزاء القول متناسبة الوضع، متقاسمة النَّظم، معتدلة الوزن، متوخي في كل جزء منهما أن يكون بزنـة الآخر دون أن يكون مقطعاهما واحد"[5]، ومثالها قوله سبحانه ﴿فاصبر صبرا جميلا، إنهم يرونه بعيدا، ونراه قريبا، يوم تكون السماء كالمهل، وتكون الجبال كالعهن﴾

1 هو أبو محمد القاسم بن محمد بن عبد العزيز الأنصاري السجلماسي نسبة إلى سجلماسة بالمغرب، أديب لغوي، مغمور في الأوساط العلمية عاش في نهاية القرن السابع هجري وبداية الثامن، ولا تُعرف له سنة ميلاد أو وفاة، من أشهر تآليفه كتاب المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع حققه أول مرة علال الغازي.

2 السجلماسي المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، ط 01 (1980)، مكتبة المعارف المغرب، ص 508.

3 نفسه ص 509.

4 نفسه ص 509.

5 نفسه ص 514.

المعارج 05-09، ففواصل الآيات (جميلا، بعيدا، قريبا، المهل، العهن) على وزن واحد وقوافيها متقاربة في مخارجها.

أمّا المناسبة فعرّفها السجلماسي بقوله: " تركيب القول من جزئين فصاعدا كل جزء منهما مضاف إلى الآخر، ومنسوب إليه بجهة ما من جهة الإضافة، ونحو ما من أنحاء النسبة"[1]، ولها أربعة أنواع هي:

- إيراد الملائم: وهو أن تجمع بين الشئ وشبيهه. مثل: الشمس والقمر (يتشابهان في الإضاءة)
- إيراد النقيض: وهو أن تجمع بين الشئ وضده. نحو: الليل والنهار.
- الانجرار: وهو الجمع بين الشئ وما يستعمل فيه. مثل: اللجام والفرس (اللجام ينجر عنه كبح سرعة الفرس)
- التناسب: وهو الجمع بين الشئ وما يناسبه. نحو: القلب والمِلك (القلب سيدٌ في البدن كما المِلك سيد في مدينته).

فالعلاقة الجامعة بين المناسبة عند السجلماسي ومفهوم التوازي عند المحدثين، هي التشابه والتغاير الذي تحققه أنواعها، وهو المبدأ ذاته الذي يقوم عليه التوازي الحديث.

أمّـا الكفوي (ت1094هـ) فقد نزع منزعاً آخر في فهمه للتوازي، خَالفَ به أهل الصنعة جميعا وأن لم يخرجه عن علم البديع، حين لم يضمّـه إلى السجع، بل نظر إليه على أنه اتفاق شيئين في الخاصة والكيفية والكمية والنوعية قال في تعريفه للمشاكلة "هي اتفاق شيئين في الخاصة، كما أن المشابهة اتفاقهما في الكيفية والمساواة اتفاقهما في الكمية والمماثلة اتفاقهما في النوعية ... والموازاة اتفاقهما في جميع المذكورات"[2] ، فهو عنده ضرب من المشاكلة، وهي في اصطلاح البلاغيين "أن يُذكر الشيء بلفظ غيره، لوقوعه في صحبته كقوله تعالى ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾[3] المائدة 116.

---

[1] السجلماسي، مصدر سابق ، ص518.

[2] أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في الفروق والمصطلحات اللغوية، تح عدنان درويش ومحمد المصري، دط، مؤسسة الرسالة بيروت، ص843.

3 أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، تح يوسف الصميلي، دط، المكتبة العصرية بيروت ،ص309.

وإني لأعتقد أن ما حدا بالكفوي إلى هذا الفهم؛ هو اشتمال ما أسماه "الموازاة" على خاصتين هامتين يُبنى عليهما مفهوم التوازي، هما: التشابه الذي تحققه المشابهة، ثم التجانس الصوتي والتقابل الذي قد يحققه التناسب، لأن المشاكلة قد تصير إليه قال " وقد يراد من المشاكلة التناسب المسمى بمراعاة النظير، أعني جمع أمر مع أمر يناسبه"[1]، يَعْضُدُ هذا المعنى المثال الذي أورده موضحا التناسب فقال " قال مِصْريٌ لبَغْدَادِي: " خسّنا خير من خسّكم " فقال البغداديُّ في جوابه: " خيّارنا خير من خيّاركم " ففيه التقابل بين الخس والخيار بوجه بأن يراد بالخس الخسيس وبالخيار خلاف الأشرار"[2] فالخسّ والخيّار قد يراد بهما النبات المعروف أو اللؤم (خسيس) وخلاف الأشرار (الخيّار جمع خيِّــر ومنه ما نُسب إلى النبي 'إذا ذهب **الخيار** وبقيت خشارة كخشارة الشعير لا يبالي بهم الله بالة')

وصفوة القول فيما سلف، أن التوازي عُرف عند النقاد البلاغيين القدامى، وما كان لهم أن يغفلوه وهو جلي في شعرهم بل قائم عليه معظمه، حسب ما يقوله الدكتور محمد مفتاح " الشعر العربي هو شعر التوازي بكل ما تحمله الكلمة من معنى"[3]، وذلك ما أكسبه صفة الغنائية التي صارت مرتبطة به، وقد صاغ أهل الرجز القدماء أشعارهم على إيقاعات متوازية، فكان التوازي وسيلتهم العروضية واللغوية في قرض الأشعار. ثم إن اشتقاق مصطلح "المتوازي" ينم عن الوعي النقدي الذي أسهم القرآن في تشكيله لعلمائنا الأوائل، وعلى تداخل بعضها ببعض العلوم أخذاً وعطاء.

[1] أبو البقاء الكفوي، مصدر سابق، ص843.

2 نفسه ص 843.

3 محمد مفتاح، التلقي والتأويل، ص150.

ومما جاء مُلخِّصًا ومنظوما في السجع قول الأخضري[1] في نظم الجوهر المكنون:

والسجعُ في فواصل في النّثر ... مُشْبِهةً قافيةً في الشعر

ضروبه ثلاثة في الفن ... مُطرّف مع اختلاف الوزن

مرصع إن كان ما في الثانية ... أو جُلّه على وِفاق الماضية

وما سواه المتوازي فادري ... كسررٍ مرفوعة في الذكر

أبلغُ ذاك مستوٍ فما يرى ... فيه القرينتين الأخرى أكثرا

والعكس إن يكثر فليس يُحسِنُ ... ومطلقا أعجازها تُسكّنُ[2]

[1] الأخضري: هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عامر الأخضري، المالكي صوفي فقيه لغوي منطقي، من أهل بسكرة بالجزائر توفي 983 هـ. من أشهر مؤلفاته: نظم الجوهر المكنون، شرح السراج في علم الفلك، مختصر الأخضري في الفقه

[2] أحمد الدمنهوري، حلية اللب المصون في شرح الجوهر المكنون،، دط، ص 102.

- **عند النقاد العرب المحدثين:**

لاشك أن التطور الذي شهدته البشرية في العصور المتأخرة، انعكس على الأعمال الإبداعية الأدبية، مما أدى بالضرورة إلى اتساع المفاهيم وشموليتها، والتوازي لا يخرج عن هذه القاعدة، فقد شهد مفهومه توسعا أخرجته من دائرة القافية والسجع الضيقة، ليصبح الأخيران جزءاً صغيراً منه، ورغم ذلك يظل فن السجع " أجمل ما تميز به النص العربي في نصاعته وجماله وإشراقته،... يدعونه سجعا إن تحدثوا عن النثر، وبحرا أو وزنا إن تحدثوا عن الشعر، ثم تراهم بعد ذلك يقعدون قعود صاحب الخطيئة، وإلا فمن من النقاد العرب تحدث عن الإيقاع في النص العربي الأصيل، فوفاه حقه وبسط فيه حديثه...؟ مع أن العربية ربما كانت أغنى لغة إنسانية بالطاقة الإيقاعية"[1]، وعذرهم في هذا جلي بيّن، لأنهم إنما كانوا يكتبون وفاقا لما أُشتهر في أعصرهم، مستنبطين من حياتهم البسيطة أصولا لفن الإيقاع، ولا أدلّ على من تسمية المصطلحات العَروضية بأسماء أقرب إلى تلك الحياة كالأوتاد، والأسباب، ... الخ، التي أرسى قواعدها الخليل وتلامذته من بعده .

ومهما يكن الأمر يظل التوازي عند المحدثين ظاهرة دلالية أشد عمقا، فهو عندهم أعمّ من التوازن الذي هو "تعادل فقرات الكلام وجمله كما في النثر المزدوج أو شطري البيت الواحد ، من حيث الإيقاع والوزن ، أما التوازي فهو أن يستمر هذا التوازن في النص كله ، كالذي نجده في القصيدة الشعرية ، حيث يتكرر إيقاع كل شطر منهما في كل بيت منهما ويستمر حتى نهايتها ، بحيث يكون الجناح الأيمن من القصيدة يوازي جناحها الأيسر من حيث الوزن والإيقاع"[2].

وقد عدّ بعض الدارسين التوازي من أهم الظواهر الموسيقية الدلالية، المعتمد عليها في بناء تراكيب النصوص الأدبية، وزاد بعضهم على ذلك حين جعله قانونا من قوانين الإيقاع، فالدكتور محمد مفتاح – وهو من الضالعين بالتراث العربي– يرى أن الشعر العربي هو شعر التوازي، إذ يمثل عنده " النواة الأولى بالنسبة للفن الأصلي"[3]، ويتضح هذا أكثر من خلال تعريفه للتوازي بأنه " تنمية لنواة معينة بإركام قسري

[1] عبد المالك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، ط01 (1986)، دار الحداثة بيروت، ص191.

[2] عبد الله الجياني، التوازي التركيبي في القرآن، ص15.

[3] غانم صالح سلطان، التوازي في قصيدة محمد درويش عاشق من فلسطين، مج أبحاث كلية التربية ج11 ع02 (2011) ص 362.

أو اختياري لعناصر صوتية ومعنوية وتداولية ضمانا لانسجام الرسالة" وأضاف منوهاً بأهمية التوازي أنه " سمة شعرية قلما يخلو منها شعر ... فهو ظاهرة موسيقية ومعنوية، في آن واحد لأن الذي يدرس التوازي يكشف دور البعد الصوتي الإيقاعي في إنجاز البعد الدلالي" [1]

فالتوازي لدى المحدثين يتجاوز أنظمة اللغة وصيغ الخطاب "وقد ينظر إليه باعتباره ضربا من التكرار، لكنه تكرار غير كامل"[2]، لأن التكرار ناتج عن إعادة وحدات صوتية لتوكيد المعنى، أما التوازي فيجاوز ذلك إلى التراكيب والدلالات الناتجة عنها، ليصبح النص وحدة دلالية تتعلق ألفاظه بعضها ببعض مشكّلة نظما متوازيا، يسهم في ترجمة الحالة الشعورية التي يكابدها الملقي للمتلقي، من خلال وضعها في قالب أسلوبي راق، وفي السياق ذاته يقول الدكتور محمد الحسناوي "والتوازي ... يصير أحيانا إلى القانون السابع –التكرار– حين لا يقتصر على التشابه في صيغ التركيب وترتيب الأجزاء، بل يعيد النسق بحروفه وأحيانا يتحول إلى التوازن حين يضيف إلى ترتيب الأجزاء وحدة الصيغة ووحدة الوزن، ومع ذلك تبقى جسور متصلة بين الأنواع جميعا "[3]، وفي هذا دليل على اتساع مفهوم التوازي وتداخله مع قوانين الإيقاع .

وبشكل عام فإنّ التوازي لدى المحدثين " تأليف ثنائي متماثل ليس متطابقا، وكثير من بُنى النص التي يحتوي عليها التوازي هي بُنى متساوية أو متكررة بأي شكل كان" [4] تعكس في مجموعها الترابط النصي العام .

بيد أن التوازي لا يؤدي وظيفته الجمالية، إلا إذا أحسنَ الأديبُ الإفادةَ منه في ترصين بنيته الإيقاعية، إذ تمتد تأثيراته لتشمل جميع مستويات البنية الشعرية بأبعادها المختلفة، الصوتية والنحوية والتركيبية والدلالية، مما يكسب التوازي صبغة جمالية مؤثرة على المتلقي، وفي الوقت ذاته يجعله حاملا لأبعاد وظيفية من ناحيتي البناء والتركيب، حتى كأن النص بناء يشد بعضه بعضا.

ولعل ما أوردناه آنفا، يجعلنا نعتقد أن التوازي عند المحدثين، يحتل موقعا هاما في تشكيل النصوص، ويشهد لهذا ما أفرزته دراساتهم، من أنواع جديدة للتوازي أهمها، ما ذكره حاتم الصكر إيقاع التعاقب أو

[1] غانم صالح سلطان، مرجع سابق، ص362.

[2] عبد الله الجياني، التوازي التركيبي في القرآن، ص15.

[3] محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ط 02 (2000)، دار عمار عمان، ص 238.

[4] أشواق النجار، التوازي الصوتي في سورة القمر، مج آداب الرافدين بغداد، ع58 (2009) ، ص03.

النمو المتوالي"، الذي ينشأ عن العلاقة التراتبية بين وحدات متجاورة تهدي إحداها إلى الأخرى وصولا إلى الختام " وهذا النوع من التوازي له ميزة نثرية، فهو ليس قائما على المشابهة والتعارض، بل على التعاقب المتنامي لوحدات النص بحيث يُنتقلُ من وحدة إلى جارتها دون إحساس بالنفور أو انفصال بينها، وغالبا ما "يرد في أواخر القرائن على شكل تعقيب أو تذييل ... وينطوي على أكثر من جملة"[1] كقوله تعالى تعقيبا على ادّعاء الكفار بالإصلاح في الأرض، وانتفاء السفه عنهم لكفرهم، على التوالي ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ البقرة 12 وقوله ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ البقرة 13.

ولعل ما أبرز هذا النوع وغيره، هو النص الحديث بنوعيه – الشعري والنثري–، الذي ينفرد من جهة بقدرة التمكن (من تبليغ الرسالة) ومن أخرى بقدرة الانزياح عن القوالب القديمة، بتوليده نماذج جديدة تواكب العصر اعتمادا على تقنيات جديدة، يُفرِغ فيها شاعريته المشحونة بالانفعالات النفسية والإيحاءات الدلالية، التي ترسم إحداثيات التوتر الإيقاعي المتناغم مع حركة النفس[2].

وظاهرة التوازي بمفهومها الحديث، من أهم ما يحقق تلك الشاعرية الصادرة عن تأثير الإيقاع الصوتي على حاسة السمع، باستخدام تقنيات صوتية منبعها فن البديع، مما حدا ببعض الدارسين لاعتبار الشعر " هندسة حروف وأصوات نعمّر بها في نفوس الآخرين عالما يشبه عالمنا الداخلي، والشعراء مهندسون لكل منهم طريقته في بناء الحروف وتعميرها"[3] بما يوافِق العوالم المتشابهة، ومن ثَـــمّ فلا مناص من جعل تلك الجمل متوازية يشد بعضها إزر بعض، بهدف التأثير في نفس المتلقي .

إضافة إلى ما سبق، أودّ الإشارة في هذا المقام إلى دراسات عَلَمين من أعلام التجديد، هما الدكتور محمد مفتاح والدكتور عبد المالك مرتاض، الذِين أسهما بشكل جلي في توسيع المفهوم.

أمّا محمد مفتاح فقد رأى في التوازي منهجية شاملة للتحليل، – حسب خصائص التوازي وطبيعته*– ، ولقد أقـرّ ذلك بنفسه حين قال "وما قدمناه ليس إلا مقترحات، تتوافق مع ما كتب في المفهوم حينا وتختلف معه أحيانا أخرى،...وهذا الافتراض هو الذي جعلنا نختلف عن الدراسات المعروفة، وندفع بمفهوم

[1] أشواق النجار، مرجع سابق، ص239.

[2] ينظر، والي دادة عبد الحكيم، مباحث إيقاعية في اللغة العربية، ط01 (2014)، دار هومه الجزائر، ص103.

[3] نفسه ص05.

* يقصد بطبيعة التوازي: بنائه الهندسي الشعري، وبخصائصه: الظواهر اللغوية والعلاقات البلاغية التي يتماسك بها النص.

التوازي خطوات إلى الأمام "[1]، ولقد قسّمه إلى قسمين أساسين هما:

التوازي الظاهر: عرفه بقوله هو " ما تكافأت بنيته ومعناه تكافؤا كليا أو جزئياً "[2] وتبصره العين في تشابه الفقرات، وله أنواع أهمها:

المتطابق: وهو ما تطابقت بنيته ومعناه إما بإعادة اللفظ نفسه أو مقرونا بزيادة لا تخرجه عن معناه العام نحو:

- قربا مربط النعامة مني
- قربا مربط المشهر مني

المتماثل: هو ما تماثلت بنيته واختلف بعض معناه نحو:

ولي في كل آن جلوة

ولي في كل آن صبوة

المتشابه: وهو ما اختلفت بعض بنيته وبعض معناه مثل:

أَو أُذيقَ الغَداةَ شَيبانَ ثُكلا
أَو تَنالَ العُداةُ هَونًا وَذُلّا [3]

المتشاكه: وهو ما اختلف في كثير من بنيته وفي كثير من معناه مثل:

- تأوي إلى جسدي طيور البحر.
- ترتوي البحار من دمي.

المتشاكل: وهو ما اختلفت بنيته واتفق في بعض معناه، وهو كثير إذ يمكن التعبير عن المعنى الواحد

[1] محمد مفتاح، التلقي والتأويل، ص 159.
[2] محمد مفتاح، المفاهيم معالم، ط 01 (1999)، المركز الثقافي المغربي المملكة المغربية، ص 161.
[3] ينظر، نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ط 05 ، دار العلم للملايين بيروت، ص 266.

بأشكال متعددة مثل:

- زيد كريم
- زيد كثير الرماد

التوازي الخفي:

يقوم هذا النوع على عكس سابقه على البصيرة الفكرية، الكامنة خلف ترابط النصوص بشكل عام، إذ تشكل قضايا التوازي الظاهر متكأً لتجسيد هذا النوع حيث نتجاوز " ما هو ظاهر إلى ما هو خفي، وما هو سطحي إلى ما هو عميق حتى يمكن إثبات النظام والانتظام " [1]، قصد البرهنة على الوحدة العضوية أو الموضوعية للنص، الذي تشكل جمله المتشابهة أو المتضادة المعنى العام المراد إيصاله للمتلقي.

وقد وضع الدكتور "محمد مفتاح" أثناء تحليله لقصيدة ابن الطفيل، مخططا يوضح فيه العلاقة بين التوازيين الظاهر والخفي حسب خصائص التوازي وطبيعته كما أسلفنا آنفا

خصائص التوازي / طبيعته	توازي التطابق	توازي المماثلة	توازي المشابهة	توازي السلسلة	توازي تقابل الصيغ
التوازي المقطعي					
التوازي المزدوج					
التوازي الأحادي					
التوازي العمودي الجزئي					
شبه التوازي الظاهر					
شبه التوازي الخفي					

أمّـا ثانيهما الدكتور عبد المالك مرتاض، الذي تناول المفهوم أثناء حديثه عن بنية الخطاب الشعري الإيقاعية، لدى تحليله لقصيدة " أشجان يمانية"، التي تنتمي إلى شعر التفعيلة –المرادف للنثر العروضي– ورَدّه إلى الإيقاع الذي اتخذ في القصيدة شكلين هما:

1 محمد مفتاح، المفاهيم معالم، ص 164.

الإيقاع المركب: وهو مزيج بين الوزن والقافية مع حروفها، ويعرف بمصطلح البحور الشعرية الخليلية.

الإيقاع المفرد: الذي عُرف عند القدامى تحت مصطلح "المماثلة"* وهذا الإيقاع هو المشكّل لسابقه، إذ لا يكون تأليف الإيقاع الشعري إلا إذا تشابهت البُنى داخليا وخارجيا، تشابه مماثلة ومجانسة، فالعناصر الإفرادية في النص هي التي تمكّن الأبيات من بلوغ شأوٍ راقٍ بتشابهها وتقارب أصواتها أوتكرارها بنفسها،[1] وذلك من صميم ما يسعى التوازي إلى تحقيقه في النص، بحيث تُنْتِجُ تلك البنى إيقاعا متوازيا يخدم المعاني الكبرى وتراكيبها.

* المماثلة: أن يورد المتكلم العبارة عن معنى، فيأتى بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر، إلا أنه ينبيء إذا أورده عن المعنى الذى أراده، كقولهم: «فلان نقى الثوب» ، يريدون به أنه لا عيب فيه. الصناعتين ص 353

[1] عبد الملك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، ص 199.

ب- التوازي في الدراسات الغربية:

قررنا آنفا أن التوازي خاصية لصيقة بكل آداب الدنيا، ولعلنا لا نبالغ حينما نقرر كذلك، أن الدراسات الغربية كانت أحفل من غيرها بمفهوم التوازي الحديث حين بداياته، وقد تأثر بها الباحثون العرب المحدثون تأثرا ملحوظا، ومنشأه عند الدارسين الغربيين الإنشاد خاصة في العهد القديم حين كان الازدواج أو التقابل يسيطران على العبارة أو الجملة .. الشعرية التي تقوم على أساس التساوي فيما بينها. [1]

عودا بنا إلى السجلماسي، حينما ذكرنا أن نظرته للتوازي أفادت منها الدراسات الغربية أيما إفادة، تتجسد تلك الإفادة في الخصائص[2] التي نتلمسها من الاشتراك في تعريف المعادلة والمناسبة، وهي كالآتي:

* أن التوازي في المفهوم الغربي علاقة تماثل أو تعادل بين طرفين أو أكثر، وهذا باد من قول السجلماسي إعادة اللفظ الواحد ... في القول بمادتين مختلفتي البناء "مرتين فصاعدا" وهو ما يحققه الترصيع والموازنة.

* إن مفهوم المعادلة يستقطب الاهتمام بمجموعة من سمات التوازي على المستوى الصوتي. وإذا كان السجلماسي قد حدد ذلك في الترصيع والموازنة فإحساسه بالقيمة التعبيرية للأصوات، التي تقترن بعلاقات مجازية مرسلة متجانسة، هو الذي شكّل منطلق تعريفه للمعادلة، فالصورة في قوله "بإعادة اللفظ الواحد بنوع الصور" تدل على مراعاة نسق الصوائت في اللفظ. والمادة في قوله" بمادتين مختلفتي البناء" تدل على مراعاة نسق الصوامت في اللفظ.كما أن جنس المناسبة الذي يرادف التكرير المعنوي (مراعاة النظير)، يستقطب بأنواعه الأربعة جل العلاقات التي يفرزها التوازي على المستوى الدلالي، من تشابه أو تضاد أو انجرار أو تناسب، حسب الاستعمال.

ومع ذلك يعدّ الراهب "روبرت لوث" في الدراسات الغربية، أول من اقترح التوازي وسيلة للتحليل في

[1] ينظر عبد الواحد حسن الشيخ، مرجع سابق، ص09.

[2] ينظر محمد كنوني، مرجع سابق، ص04.

ق18م، حينما حلل التوراة في ضوء ثلاث توازيات هي : التوازي الترادفي والتوازي الطباقي والتوازي التوليفي[1]، مثلما فعل في دراسته لسِفْرِ أشعيا، مُنطلقا من كون التوازي عبارة عن تماثل قائم بين طرفين من السلسلة اللغوية نفسها، لهما نفس البنية، القائمة على أساس المشابهة أو التضاد، ومن الأمثلة الموضّحة لهذا ما جاء منسوبا للمسيح في الوصية الواردة في "العهد الجديد": "اسألوا تُعطوا...أطلبوا تجدوا...اقرعوا يفتح لكم...من لا يسأل لا يُعطى...من لا يطلب لا يجد...من لا يقرع لا يفتح له الباب"[2] وليس يخفى على المتلقي ما في هذه العبارات من توازٍ يجعلها سهلة شيقة.

ومن ثمّة برزت عدة دراسات تبحث عن التوازي –خاصة في الشعر العبري– فهوبكنس مثلا يرى أن التوازي "سمة فنية معروفة للشعر اليهودي ويعرف المقطع الشعري بأنه صوت متكرر لصورة متساوية بشكل معين بين عناصر كل جملة تامة"[3]

وانتقل تأثير تلك الدراسة إلى عدد من الآداب، مثل الأدب الانجليزي، حيث قام كل من رومان جاكوبسون وسميث بدراسة بعض الأشعار الانجليزية كشعر "بو" أستاذ التوازي في الشعر الانجليزي كما يسميه "سميث"– وأكدا أن التوازي إحدى الأسس الفنية للأدب الانجليزي.

ونظرا للمكانة التي يحتلها التوازي في نظرية جاكوبسون يحلو للكثيرين وسمه "بصاحب نظرية التوازي"، وآثاره شاهدة على مناسبة التسمية له، إذ يَعدّ التوازي أساس بناء الشعر ومحور العلاقات " المورفو تركيبية "، والدلالية بين عناصر المتتاليات المكونة للأبيات الشعرية[4]، ففي مقاله " نحو الشعر وشعر النحو" يرى أن المقاطع الشعرية " تحتاج توازيا وتعادلا إلزاميا بين السطور المتجاورة ... وأن النُظم المتوازية للفن القولي تساعدنا على توضيح الرؤية النافذة إلى ما يعنيه المتحدثون..."[5]، أما بنية التوازي عنده فتنتج من إسقاط مبدأ المماثلة على محور التراكيب، استنادا إلى قضايا شعرية تكرارية، من علمي البديع والعَروض، كالجناس والقافية والترصيع والسجع والتطريز والمقابلة، وعدد المقاطع أو التفاعيل والنبر والتنغيم، مما يُمكّنها

[1] ينظر محمد كنوني، مرجع سابق، ص02

[2] عبد الواحد حسن الشيخ، مرجع سابق، ص07.

[3] نفسه، ص 10.

[4] أشواق النجار، مرجع سابق ، ص03.

5 عبد الواحد حسن الشيخ، نفسه، ص،17.

من استيعاب الصور الشعرية باستعاراتها وتشبيهاتها ورموزها، ليصبح التوازي أداة لدراسة أعمالا كبيرة الحجم، متجاوزا بذلك الثنائيات التركيبية اللغوية البسيطة.[1] وهو عنده ظاهرة تشمل الشعر والنثر، لأن "البُنى المتوازية العامة في الشعر يمكن أن تعمم على النثر"[2]، لكون التوازي خاصة لصيقة بكل آداب الدنيا.

أما هوبكنس فالتوازي عنده، متعلق بجميع الأعمال الفنية، وهو على نوعين

الأول: تواز شديد الوسم (أو موسوم بشكل واضح): يهتم بالأثر الحاصل من تشابه الأسماء في التراكيب، وما يتعلق به من إيقاع ووزن وجناس وقافية ودلالة، ويشمل الاستعارة والتشبيه والتمثيل...الخ، ففي قول ليلى الأخيلية[3]:

لعمري لأنت المرء أبكي لفقده ويكثـــر تشهيـــدي له لا أوائـــل
لعمري لأنت المرء أبكي لفقده بجـــدٍّ ولـو لامت عليه العـــواذل
لعمري لأنت المرء أبكي لفقده ولـــو لام فيه ناقص الرأي جاهل
لعمري لأنت المرء أبكي لفقده إذا كثـــرت بالملحمــــين التلاتـل

الأبيات من مرثية لليلى في توبة بن الحمير، وهي قصيدة لها أسلوب خاص في الرثاء، حيث ترد جملة ... ' لعمري لأنت المرء أبكي لفقده ' أربع مرات مكوّنة الأنصاف الأولى من الأبيات، في تواز موسوم بشكل واضح، فاستلزم ذلك وحدة الإيقاع والوزن واختلاف الدلالة، وهذا بيّـن في الأبيات ففي الأول تغنّت بكثرة تشهيدها به، وفي الثاني ذكرت تجاهلها لمن يلومونها في ذلك، ثم عمدت لذمّهم في الثالث، وإلى مدحه في الرابع، فخرجت من تكرار إلى تكرار لاختلاف المعاني[4] في الأبيات الأربع كما رأينا .

الثاني: توازٍ انتقالي (أو تلويني): يهتم بأثر المغايرة في صناعة الدلالة، وما يتعلق بها من إيقاع ووزن، وإليه ينتمي الطباق والمغايرة والمشاكلة...الخ، ومثاله قوله تعالى ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خِلفةً لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكورا ﴾ سورة الفرقان 62، فالطباق والمغايرة في الآية بين (الليل والنهار) يكسب المعنى توازيا انتقالي بين المتغايرات دلاليا، حيث أن الليل والنهار في تعاقبهما معاً يصنعان التذكر والشكر، لأن النهار للتعب والليل للراحة، ثم "ليتدارك الناسي ما فاته في الليل بسبب غلبة النوم أو التعب فيقضيه

1 ينظر والي دادة عبد الحكيم، مرجع سابق، ص101.

2 إبراهيم الحمداني، مرجع سابق، ص22.

3 هي ليلي بين عبد الله بن الرحال من بني عامر بن صعصعة، من فحول شعراء القرن الأول الهجري، توفيت في حوالي 80هـ.

4 ينظر، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 18، ط01 (2001)، دار الساقي، ص 24 .

في النهار أو ما شغله عنه شواغل العمل في النهار فيقضيه بالليل عند التفرغ فلا يرزؤه ذلك ثواب أعماله"[1].

وكلما تقدمت الدراسات ازداد المفهوم توسعا، فنجد "سمويل ليفن" جاوز نحو الجملة إلى نحو النص، منطلقا من مبدأ التماثل في التأليف والتراكيب[2]، وميز بذلك بين تماثلين:

- تماثل البنى المتقابلة: والتي ترتبط بمركب واحد محذوف ومقدّر يُستحضر بصورة ضمنية في الأذهان. كقوله سبحانه ﴿قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس﴾ الناس 01-03

قل أعوذ = (قل أعوذ) برب الناس + (قل أعوذ) ملك الناس + (قل أعوذ) إله الناس.

- تماثل بين مواقع متوازنة: وهي المواقع المتوازنة انطلاقاً من التركيب ، حيث تتزاوج الأطراف بأدائها الوظيفة النحوية نفسها. ف: بِرَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، إِلَهِ النَّاسِ متوازنة عروضيا، ومتعلقة بـ"أعوذ" ووظيفتها النحوية تتراوح بين الجر والبدلية (ملك، إله بدل من ربّ) .

بناء على ما سبق نجزم أنّ التوازي سمة مميزة للأنماط الأدبية العالمية شعرا ونثرا، لاحتفائه بالمبنى والمعنى اللذين هما بمثابة جوادين لعربة واحدة[3]، وقد ذكر الدكتور عبد الواحد الشيخ أنه ظاهرة مثبتة في الآداب منذ القدم، فهناك دراسات كثيرة في التوازي لشعوب غير عربية، كالأدب المصري القديم والبابلي والسومري والآشوري... وكذا الشعر الصيني والياباني والفيتنامي والفلندي والروسي ...الخ، لاسيما ما ارتبط منها بشعر المناسبات الدينية، القائمة على الإيقاع المتناغم[4]، والناشئ من تشابه البنيات واختلاف المعاني، ولعل هذا ما يفسر الإحساس بنزعة القومية بعد القراءة الجماعية للكتب المقدسة، والأناشيد الدينية والأشعار الوطنية لدى كثير من الشعوب، حيث يسري ذلك الإيقاع الجماعي عبر بوابة الأذن لتُعجب به النفس مبدية تفاعلها معه .

[1] الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، ج19،ص66.

[2] ينظر عبد الله الجياني، التوازي التركيبي في القرآن، ص 22.

3 ينظر عبد الواحد حسن الشيخ، مرجع سابق، ص14.

4 ينظر نفسه ص 12،13،14.

المبحث الثالث: أشكال التوازي في القرآن الكريم

كثر الحديث عن أنواع وأشكال التوازي في دراسة النصوص الشعرية، فمنهم من عدّ مستويات التوازي أنواعا، كالتوازي النحوي والصرفي والصوتي والدلالي، ... ومنهم من حددها حسب بنيته الشكلية وهي الترادفي والطباقي والذروي[1]، ولعل مرد ذلك إلى أن نسق التوازي نفسه، الذي هو "جامع لعلوم شفوية وخطية تنسجم فيه الأساليب والسياقات النحوية والإيقاعية"[2] مما يؤدي إلى خرق أنظمة اللغة العادية، والتعبير القرآني حقيق بأن يكون أقدر التعابير على ذلك، لأنه يحوي خصائص النثر والشعر في آن، فكأنه بذلك ينـدّ على التصنيف ويعتاص على التجنيس، ويأبى إلا التفرد وإنه لكذلك[3].

يقول جلّ شأنه ﴿ ألـر كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ هود 01، إن التعبير بإحكام الآيات دليلُ شموليتها لكل النواحي (اللغوية، التشريعية،النفسية...الخ)، ولا ريب أن القرآن الكريم المثل الأعلى المحتذى به في كل الأعمال الأدبية، تلك حقيقة لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر، ولن تجد كتابا بلغت تراكيبه البلاغية الدرجة الرفيعة مثله، وإنّ التالي له ليستنبط من بنائه العجيب توازيا فريدا، "يتشكل من خلال التعالق بين العناصر الصوتية واللفظية والتركيبية المكونة"[4] لآياته، فيأسر به القلوب حتى لا تكاد تترك تلاوته، ولعله ظاهرة بيّنـة في القرآن المكي لمناسبة أسلوبها له، وغير بيّنة في القرآن المدني المختصّ بتبيان الأحكام واحتفائه بالجمال أقل[5]، مراعاة لمقتضى حال المخاطبين وحاجاتهم.

وبالتمعّـن في آي القرآن وسوره، يتضح أن للتوازي شكلين بارزين هما:

التوازي العام: الذي يسم النص القرآني كله، بحيث لا توجد آية إلا ولها تواز مع أخرى، ويشمل

1 ينظر غانم صالح سلطان، مرجع سابق، ص 364

2 عبد المنعم الدليمي، التوازي في سورة القمر، ص 334

3 ينظر عبد المالك مرتاض، نظام الخطاب القرآني، دط، دار هومه ص 265.

4 عبد المنعم الدليمي، مرجع سابق، ص 330.

5 ينظر محمد الحسناوي، مرجع سابق، ص 238.

المستويات الصوتية والصرفية والتركيبية.

التوازي الخاص: سمي بذلك لاختصاصه بالآيات المتشابهة في توازيها، وله ثلاث أشكال: تواز دقيق، تواز متجانس، تواز أقل تجانسا.

01: التوازي العام:

أ: توازي المستوى الصوتي:

نعني به تكرار الحروف بنمط معين في النظم القرآني، ودورها في تعميق الدلالة وتحقيق الإيقاع الموسيقي، من خلال المناسبة بين دلالة المعنى العام للنص والحروف السائدة فيه، لذلك يجمع الدارسون على أثر الصوت البالغ في تشكيل بنية التراكيب لاسيما القرآنية منها، لأن الجماع الواقع بين الأصوات اللغوية " يعطيها إمكانات تعبيرية كامنة...تنفجر حيثما يقع التوافق بين الأصوات المتقاربة والمتشابهة "، وبديهي أن الصوت يحقق دلالته إذا وُضِعَ ضمن تركيب لغوي ومنه ينتج الإيقاع الذي هو "نظام أمواج صوتية ومعنوية وشكلية تتآزر فيما بينها لتشكل توازيا صوتيا " راقيا.

فطريقة "نظم القرآن تجري على استواء واحد في تركيب الحروف باعتبار من أصواتها ومخارجها، وفي التمكين للمعنى بحس الكلمة وصفتِها، ثم الافتنان فيه بوضعها من الكلام"[1]، فإن كان المعنى شديدا أوجب السيادة للحروف ذوات الصفات المجهورة والشديدة، وذلك مثل "سورة المنافقون" التي جاءت لتفضح كيد المنافقين وأكاذيبهم، حيث يقول سبحانه ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون ﴾ المنافقون 01، فهذه السورة لا تناسبها إلا حروف الشدة والجهر، لما تقتضيه من الإعلان والتشهير بالمنافقين حتى يُـحْذَرَ من موالاتهم، وعلى النقيض من ذلك، إن كان المعنى هينا لينا، أوجب الوفرة للحروف اللينة والمهموسة "كسورة مريم"، التي جاءت مبيّنة في مجملها لمكبوتات نفسية خفية من مطلعها، يقول ربنا﴿ كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداءً خفيا قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك ربي شقيا﴾ مريم 01-04،

[1] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط 08(2005)، دار الكتاب العربي بيروت، ص167

فالمقام فيها مقام ذلة وانكسار ولا تناسبه إلا حروف الهمس واللين، ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى التغاير الإيقاعي الذي تحدثه القراءات القرآنية، إذ لكل منها خصائص تميزها عن غيرها.

علاوة على ما سبق فظاهرتا النبر والتنغيم، لهما دلالة واضحة في تحقيق الانسجام الصوتي بين الآيات القرآنية، "إن وجود النَّبر والتنغيم بالذات ... في الكلام المسموع دون المكتوب يجعل الأول أقدر في الكشف عن ظلال المعنى ودقائقه من الثاني, ولقد حاولت الكتابة أن تستعيض عن التنغيم بالترقيم, ولكنها لن تعوض النَّبر بوسيلة أخرى, ولم يحاول الكاتبون ذلك"[1]

والنبر لغة: الهمز: " نبرت الحرف أنبره نبرا، إذا همزته"[2]

وفي الاصطلاح "وضوح نسبي لصوت أو مقطع، إذا قورن ببقية الأصوات والمقاطع في الكلام"[3] فهو ظاهرة تلفت انتباه القارئ للاهتمام أكثر بدلالة موقعها في النص القرآني، وهو كما يقع في المقطع الواحد (الحرف) يقع في الكلمة برمتها، التي يهيئ المتكلم نفسه للضغط عليها.

ومن خلال تتبع النبر في القرآن الكريم حسب ما يظهر، نجده يحقق نوعين من التوازي:

- توازي نبر الأداء الصوتي الداخلي في الآيات: وله فرعان:

- توازي تكراري نبري جزئي:يحدث نتيجة تكرار جزء من الآية، كالهاء في قول ربنا ﴿هآؤم اقرءوا كتابيه﴾ الحاقة 19

- توازي تكراري نبري كلي:يحدث نتيجة تكرار لفظة في الآية، كقوله تعالى ﴿إذا زلزلت الارض زلزالها﴾ الزلزلة01

- توازي الأداء الصوتي الخارجي: يختص بتوازي التوازن النبري، يحدث في الآيات المكررة إما:

- تكرارا جزئيا كقوله تعالى: ﴿فاصبر صبرا جميلا﴾ المعارج 05.

[1] تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ط05، (2006)، دار عالم الكتب بيروت، ص 47.

[2] أبو منصور الأزهري، تهذيب اللغة، ج 15، تح محمد عوض مرعب، ط01 (2001)، دار إحياء التراث العربي بيروت، ص 154.

[3] رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث الغوي، ط03 (1997)، مكتبة الخانجي القاهرة، ص 103.

– أو تكرار كلي لبعض الآيات: كقوله تعالى: ﴿فبأي آل ربكما تكذبان﴾ الرحمن 13

أما التنغيم "فهو ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام"[1]، ويسميه الدكتور أنيس إبراهيم "موسيقى الكلام" لما يصحبه من نغم يختلف حسب معنى الجمل، "فالتنغيم ما هو إلا مذهب أو طريقة أصواتية يلجأ إليها المتكلم للتعبير عن أغراضه ومقاصده من وراء الكلام"[2]، لأنه ذو وظيفة نحوية دلالية، وأخرى صوتية.

فالوظيفة النحوية يسهم التنغيم بها للتفرقة بين دلالات الجمل فقوله تعالى: "ما هذا بشرا"، تتغير دلالته كالآتي:

النفي التقريري: ما هذا بشرا.

الاستفهام: ما هذا بشرا ؟

التعجب: ما هذا بشرا !

أما **الوظيفة الصوتية** فيسهم بها في تناسق الأصوات، وهو ما يبدو من اختلاف نغمات المقاطع الصوتية بين العلو والانخفاض حسب ما تتطلبه الدلالة، وهو بذلك يقوم مقام الميزان الصرفي، الذي تقتضي زيادة المبنى فيه زيادة المعنى بالضرورة. (صبر ≠ اصطبر)

فالنبر والتنغيم إضافة للتجانس الصوتي للحروف في النص القرآني، له دور هام في إكساب تراكيبه توازيا صوتيا منعدم النظير.

انطلاقا مما سبق يتضح أن القرآن بنظمه البديع، أعطى الحروف وموسيقاها حظا وافرا من العناية والاهتمام، وأن إيقاعه يَنْشَأُ عن تكرار الحروف المنسجمة مع المعنى، الموافقة لسنن العرب في كلامها، من حيث انتفاء التنافر عنها، الخارقة لها من حيث التأليف فيما بينها، ليكتسب التعبير القرآني بذلك موازاة

1 ينظر والي دادة عبد الحكيم، مرجع سابق، ص 57.
2 نفسه ص 62.

صوتية فريدة خاصة به، وعليه فإن الأصوات اللغوية، تُعدّ جانبا مهما في إعجازه وهي ذات أبعاد جمالية بارزة فيه.

فائدة: ذكر العلماء أن اجتماع حروف مشتركة أو متقاربة المخارج، من الأسباب الموجبة للثقل والتنافر، غير أنه اجتمعت في القرآن ثمان ميمات متواليات ولم يحدث شئ من ذلك، بل على العكس ازدادت خفة في سورة هود من قوله سبحانه ﴿ وعلى أممٍ ممّن مَعك ﴾ فالتنوين في 'أممٍ' والنون في 'ممن معك' يدغمان فيصيران في حكم ميم أخرى فهذه أربعة، والمتبقية أربعة أصلية في الكلمات فتلك ثمانية.

ب- التوازي على المستوى الصرفي:

ويقصد به تكرار المفردة ومشتقاتها الصرفية في الآيات، مما يوحي بأهمية زائدة خُصّ بها المعنى، يقول ابن الأثير "اعلم أنّ اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان، ثمّ نقل إلى وزن آخر أكثر منه، فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا ... فإن زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني"[1] وهذا موافق لما قرره اللغويون في مصنفاتهم من أن كل زيادة في المبنى تصحبها بالضرورة زيادة في المعنى، والمرجع في ذلك للميزان الصرفي.

وهو كثير جلي في كتاب الله، ومنه قوله سبحانه في أهل البيت النبوي ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا﴾ الأحزاب 33، فإعادة لفظتي الكلام، على وزني "يفعّل" و"تفعيل" لم يَرِد تحسينا للمعنى فحسب، بل لإظهار فضل آل البيت للمؤمنين أولا، ثم تحليتهم بمزية هم أحق الناس بها ثانيا، والتعبير بالفعل المضارع "يطهّركم"دال على الثبات والاستمرار، وفي إضافته لفاعل هو الله سبحانه أعظم شرفٍ، وكفى بإنزال الله فيهم ذِكراً يُتلى مادامت السماوات والأرض شرفا، وأما التعبير بصيغة المصدر المطلق "تطهيرا" فدال كذلك على طهارة الظاهر المعلومة وقبلها طهارة الباطن بالتزكية، فكيف يحل الرجس فيمن كانت هذه حاله !!!؟

ويمكن أيضا تلمس توازي هذا المستوى في آيات متباعدة سور مختلفة، نحو (أنجى، نجّى) في:

[1] ابن الأثير، المثل السائر، تح أحمد الحوفي، بدوي طبانة، ج02، دط، دار نهضة مصر القاهرة، ص167.

قوله تعالى ﴿ وإذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم ﴾ البقرة 49

وقوله سبحانه ﴿وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ البقرة 50

إن في إعادة الفعل بصيغتين صرفيتين مختلفتين (فعّل، أفعل)، في سياق الحديث عن بني إسرائيل، فيه دلالة المنّ والتفضل، واستعمال القرآن ل(نجّى) يأتي للدلالة على التلبث والتمهل في النتيجة، واستعماله ل(أنجى) للإسراع فيها إذ هي أسرع في التخليص من الشدة والكرب[1]، وسياق الآيتين دال على ذلك، ففي الأولى كانت النجاة بعد أن ذاق بنو إسرائيل مُـرّ العذاب من فرعون وحاشيته سنين طويلة، أما في الثانية فكانت النجاة بمجرد فلق البحر.

أمّا تنويع استعمال الموازين الصرفية في الآيات المتشابهة، فيحيل إلى تواز بديع بينها، يجعل المتأمل يستحضرها في ذهنه جميعا لدى تلاوته المُتدبِـرة، فلا شك أن كل مفردة وضعت وضعا مقصودا في مكانها المناسب، فالحذف مقصود والذكر مقصود والإبدال مقصود، وكل تغيير في المفردة أو إقرار على الأصل مقصود له غرضه وتلك كلها ظواهر صرفية[2]

ب: توازي المستوى التركيبي:

هذا المستوى أهمّ مستويات التوازي، لأنها تجتمع فيه كلها، وقد سلف لنا تبيانه، عندما عرّفنا التوازي بأنه بمثابة سلسلتين متواليتين أو أكثر، لنفس النظام الصرفي النحوي المصاحب بتكرارات أو باختلافات إيقاعية وصوتية ومعجمية دلالية، وإنما عُـرّف الأصل بالفرع للعلاقة الجامعة بينهما، إطلاق الجزء على الكلّ.

ومعلوم أنّ اللفظة لا معنى لها خارج سياقها، لأنّ هذا الأخير يتشكل من مزيج يشبه نسيج العنكبوت، إذ "الألفاظ لا تُفيد حتى تُؤلَّف ضرباً خاصّاً من التأليف، ويُعْمَد بها إلى وجه دونِ وجهٍ من

1 فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني،ط02 (2002)، شركة العاتك القاهرة.
2 نفسه ص 04 .

التركيب والترتيب"[1]، وأن موقع الكلمة في النص يكشف حقيقة معناها، واختلاف السياقات ينتجُ اختلاف الدلالات "واعلمْ أَنك إِذا رجعتَ إِلى نفسِك علمتَ علْماً لا يعترضُه الشكُّ، أَنْ لا نَظْمَ في الكَلِم ولا ترتيبَ، حتى يُعلَّقَ بعضُها ببعضٍ، وَيْبني بعضُها على بَعض، وتُجعلَ هذه بسبب من تلك"[2]، وما ذكره الجرجاني لا يتحقق في التراكيب اللغوية عامة (أو ما يسميه النظم)، حتى تخضع لمعاني النحو، "اعلم أَنْ ليس النظمُ إِلا أن تضعَ كلامكَ الوضعَ الذي يَقتضيهِ علمُ النحو، وتعملَ على قوانينهِ وأُصولِه" [3]

إن أي نص يُشكّل وحدة دلالية قائمة بذاتها، وما الجمل والفقرات إلا وسيلة تحقق تلك الدلالة، من خلال المعاني الجزئية التي تحملها، والتي تؤدي إلى اتساق النص وانسجامه، ولا يحصل لها ذلك إلا بالعلاقة الضرورية بين التركيب النحوي الذي يُنشأ المعنى الدلالي، إذ بينهما أخذ وعطاء فالعنصر النحوي يمدّ العنصر الدلالي بالمعنى الأساسي في الجملة، كما يمدّ الأخير الأول بعدد من الجوانب التي تساعد على تحديده وتمييزه[4]، فقولنا "ما أحسن زيد" تركيب نحوي سليم، غير أن دلالته تتراوح ما بين النفي والاستفهام والتعجب، وإنما نفرق بينها من خلال تغير تعابير الوجه، التي تعد الجانب المهم في تمييز وتحديد دلالة المتكلم.

وظاهرة التوازي من أهم الظواهر التي تربط النص وتنظمه، وتؤسس تراكيبه على دلالات متشابكة متناسقة، يضبطه في الشعر الوزن والقافية، وفي النثر المشابهة والمغايرة "يشكل مبدأ التشابه قاعدة للشعر، يثير التوازي الإيقاعي فيه للأبيات، والتكافؤ الصوتي للكلمات المقفاة قضية التشابه الدلالي والتباين ، أما النثر فهو بخلاف ذلك يتعزز بمبدأ التماس"[5] وفسّر الدكتور عبد السلام المسدي التماس بأنه "اشتراك ظاهرتين أو مُعطيين في خاصية لهما، ويزدوج استعمالها عادة مع مصطلح التداخل وهو درجةٌ أكبر من

[1] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح محمود شاكر، دط ، دار المدني جدة السعودية، ص 04.

2 عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمود شاكر، ج01، ط03 (1992)، دار المدني جدة السعودية، ص55 .

3 الجرجاني، نفسه، ص 81.

4 ينظر عبد الله الجياني، التوازي التركيبي في القرآن، ص 16.

5 نفسه، ص 17

التداخل دون التطابق"[1]، لذلك وصفناه بأهم الظواهر النصية.

إما إن انتقلنا لدراسة ترابط التراكيب ودلالتها في النص القرآني، وجدناه مستحوذا عناصر الترابط التركيبي والانسجام الدلالي، فآياته صاغها سبحانه مترابطة متماسكة، تقود إحداها إلى الأخرى دون أن يحس المرتل لها بانفصام بينها، في وحدة نصية لا تُرقى، بل الأمر يتعدى الآيات إلى ترابط السور، فارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم[2]، وقد طالعنا فيه العلامة فخر الدين الرازي بتفسيره "مفاتيح الغيب" الذي ضمنه بعض اللطائف المُجلّيّة لـخِبئهِ، ثم أعقبه السيوطي بمؤلَّفه القيّم "أسرار ترتيب القرآن" أودع فيه أسرار وضع كل سورة بإزاء أختها، قال في مستهله "تضمّنت سورة الفاتحة الإقرار بالربوبية، والالتجاء إليها في دين الإسلام، والصيانة عن دين اليهود والنصارى، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين، وآل عمران مكملة لمقصودها، فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم..."[3] وأورد في خاتمته كلاما طويلا عن سورة الكوثر صفوته أنها " كالمتممة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها... ثم إنه سبحانه ختم كتابه المكـرّم بتلك الطريقة التي هي أشرف، فبدأ بذكر صفات الله، وشرح جلاله في سورة الإخلاص، ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته في الفلق، ثم ختم بذكر مراتب النفس الإنسانية في الناس"[4]، وذاك هو سبب التوازي الفريد الذي انفرد به.

على أن التوازي التركيبي له أنواع كثيرة، تحددها طبيعة النص فمن تواز تركيبي طباقي إلى تواز تركيبي ترادفي إلى تواز تركيبي تأليفي إلى تواز تضادي، إلى تراكمي، إلى تناوبي ...الخ، غير أنني سأكتفي بذكر أهم تلك الأنواع، التي ذكرها المؤصلون لهذا في القرآن وهي:

[1] عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، ط03، الدار العربية للكتاب ليبيا.

[2] السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، دتح، دط ، دار الفضيلة، ص 04 .

[3] السيوطي، نفسه، ص 54.

[4] السيوطي، نفسه، ص 174

توازي الترادف: يعتمد تدعيم وتقوية آية أو آيات لاحقة لفكرة ذكرتها أخرى سابقة، عن طريق التكرار أو المغايرة، من أجل خلق تأثير مباشر على الأذن وتحقيق الإقناع[1]، نحو قوله سبحانه " ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم إِذ نْجَيناكُم مِن آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُم وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُم وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البقرة 49

فقول ربنا ﴿يَسُومُونَكُم سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُم﴾ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُم﴾ متعلقة بفاعل واحد هو "آل فرعون" وكلها تأخذ حكم الترادف يقوّي بعضها بعضا ويدعمه.

وبناؤه النحوي على المخطط الآتي:(فعل مضارع + الضمير 'كم' + الفاعل المقدّر'هم' + مفعول به 'اسم ظاهر') لأنه سبحانه فصّل بعد إجمال ليقوي دلالة سوء العذاب المسلط على بني إسرائيل من آل فرعون .

توازي الطباق:[2] يقصد به التضاد الذي تفرزه الآيات حين تعرض مشهدين متضادين، إذ تقوم المتوالية الثانية بمعارضة المتوالية الأولى أو إنكارها. كمثل ما جاءت به سورة البينة، التي تبيين مآل فريقين: قال تعالى ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ البينة 6-8

فالله سبحانه ذكر في الآيات مشهدين متضادين وفي طباق بديع نُجليه فيما يلي:

مشهد الكافرين ومآلهم في الآخرة
- في نار جهنم
- خالدين فيها
- شر البرية

[1] ينظر غانم صالح سلطان، مرجع سابق، ص361.

[2] غانم صالح سلطان، مرجع سابق ، ص 371 .

مشهد المؤمنين ومآلهم في الآخرة
- خير البرية
- جنات عدن
- خالدين فيها
- رضي الله عنهم
- رضوا عنه

فالمشهدان متطابقان متعلقان بمؤكَّد سابق هو 'إن الذين كفروا' و'إن الذين آمنوا' "مع زيادة رضا الله والرضا عنه" في المشهد الثاني دلالة على ما خُصوا به من المحبة و"قوبل حال الكفرة من أهل الكتاب وحال المشركين بحال الذين آمنوا بعد أن أشير إليهم بقوله "وذلك دين القيمة"، استيعابا لأحوال الفرق في الدنيا والآخرة، وجريا على عادة القرآن في تعقيب نذارة المنذرين ببشارة المطمئنين، وما ترتب على ذلك من الثناء عليهم، وقدم الثناء عليهم على بشارتهم على عكس نظم الكلام المتقدم في ضدهم (الكافرين)، ليكون ذكر وعدهم كالشكر لهم على إيمانهم وأعمالهم"[1]

والأجدر أن يُسمى هذا النوع " توازي المقابلة " لجماعه بين متضادات متعددة، تشكل في مجموعها الفارق بين المشهدين .

توازي التأليف (التركيب): يُعنى بتوازي التراكيب في سلسلة لغوية متوالية، تفضي إحداها إلى الأخرى، وقد يشترك في تحقيقه أكثر من ضرب في النص الواحد مشكلاً توازياً عاماً ينظم الأضرب جميعها[2]، وهو كقوله تعالى:﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا، وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا، وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا،

[1] الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، ج 30، ص 485.
[2] عبد الله الجياني، التوازي التركيبي في القرآن، ص 31.

وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس 01-10 فالآيات تتابعت فيها التراكيب منتقلة من موقف إلى أخر، أُبتدأت بالحديث عن الأكوان وأنظمتها الملازمة لها (الشمس، القمر، النهار...) ثم انتقل إلى أعظم مخلوقاته نفس الإنسان، مبينا أنّ فلاحها وتقواها بالتزكية، وخيبتها وفجورها بتدسيتها أي الحيلولة بينها وبين فعل الخير.

وبالتدقيق في توازيات الآيات أعلاه، تبرز ثلاث تراكيب نحوية هي:

*حرف القسم (الواو) + المقسم به + حرف العطف (الواو) + المعطوف + ضمير الغائب (الهاء). مرة.
*حرف العطف(الواو) + المعطوف + ظرف الزمان الاستقبالي (إذ) + الفعل + ضمير الغائب (الهاء). ثلاث مرات

*حرف العطف(الواو) + المعطوف + حرف العطف(الواو) + ما المصدرية + فعل ماض + ضمير الغائب (الهاء). ثلاث مرات كذلك؛ فانظر إلى هذا الترابط البديع المتشابه الذي تحدثه حروف العطف وأدوات الربط المتكررة.

ويبرز كذلك الضربان السابقان المُتضَمنان في هذا، فبالعودة للآية يظهر الطباق (التضاد) في: (النهار والليل، السماء والأرض ، جَلَّاهَا ويَغْشَاهَا، فجورها وتقواها،...الخ)، كما يظهر الترادف في الحقل الدلالي ("الكواكب" بين: الشمس، القمر، السماء، الأرض...الخ) والحقل الدلالي ("النفس": سوّاها، فجورها، تقواها، زكاها، دساها...الخ)، وقد فصّلنا القول آنفا عن أهميتهما في إحداث الترابط النصي .

02: التوازي الخاص:

أ: توازٍ دقيق يشبه التكرار:[1]

تكون فيه الآيات مكررة تكرارا كليا أو جزئيا، في السورة الواحدة أو في سورٍ مختلفة، بيد أن تكرارها لا يخرج عن هيمنة السياق الواردة فيه، ومن ثمّة تكتسب التراكيب القرآنية صفة الثبات والملاصقة لموضعها،

[1] محمد الحسناوي، مرجع سابق، ص 239

ومن أمثلته قول ربنا: ﴿ولهم عذاب أليم﴾ التي تكررت ثلاث مرات في سورة "آل عمران".

قال سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ آل عمران 77.

يتحدث الحق سبحانه عن صفة ذميمة عند أهل الكتاب –خاصة- وهي "خيانة الأمانة وإبطال العهد"، وما أعدّه لهم من وعيد شديد (لا خلاق لهم، لا يكلمهم الله، لا يزكيهم) ليكون تحذيرا من تشبّه بهم .

وقال سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ آل عمران 177.

هذه الآية مواساة للنبي ﷺ حتى لا يتحسر عن "الذين يسارعون بأعمالهم إلى الكفر بغية إبطال الإيمان" فهو سبحانه قد أعدّ لهم عذابا أليما يناسب أعمالهم، فالجزاء من جنس العمل.

وقال أيضا ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ آل عمران 188.

أعاد الحقّ سبحانه الحديث في هذه الآية عن بني إسرائيل الذين يتطلعون للمحمدة، ادعاءً منهم بأنهم حفظة الشريعة والعالمون بتأويلها وهم خلاف ذلك، وأثبت لهم العذاب الأليم دون تحديد شئ منه كذلك، ليكون أبلغ وأعجز عن الوصف، إذ النكرة تدل على العموم، وكأنه لا يوجد عذاب أليم إلا ولهم منه نصيب.

إن جميع آيات السابقة تنتهي بتوازي دقيق يبلغ حدّ التكرار، أسهمت فيه طبيعة السورة التي جاءت لكشف شبهات الخصوم وردّ دعاويهم الباطلة تجاه أمة الإسلام.

ب- تواز متقارب (متجانس)[1]:

[1] محمد الحسناوي، مرجع سابق، ص 240

تهيئُه لنا الآيات التي تنتهي فواصلها ببناء ووزن موحَّدين، أوباختلاف طفيف بينها، مع عدم قبول التبديل بينها طبعا، ومنه قوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون﴾ آل عمران 98

وقوله سبحانه: ﴿إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون﴾ آل عمران 153

وقوله كذلك ﴿هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون﴾ آل عمران 163

البناء النحوي في فواصل الآيات جاء على النحو التالي:

حرف العطف (الواو)+ لفظ الجلالة (الله)+ الصفة المشبهة (فعيل) +حرف الجر + الاسم المجرور (ما) +الفعل المضارع

فتعاور المفردات "شهيد، خبير، بصير" التي تفيد الثبوت، يوحي بإمكانية التبديل بينها، بيد أنّ هذا الوهم يتبدد حين تُدرك الفروق اللغوية بينها، فالقرآن الكريم استعمل في السياق الأول "شهيد" مع أهل الكتاب لأنهم يوقنون بعموم علم الله تعالى، وأنه لا يخفى عليه شيء فجحدهم لآياته مع ذلك اليقين أشد إنكارا[1]، فلما جحدوا مع علمهم، ذكّرهم بشهادته الدائمة عليهم، لأن "الشهيد" الأمين في شهادته الذي لا يغيب عن علمه شيء[2]، أما قوله "خبير" فساقه سبحانه في سياق ذِكر أحداث غزوة أحد، وفي سياق التخاطب مع المؤمنين، وهو توعّدٌ لهم[3]، إذ هو وحده يعلم المخلص من غيره، لأن الخبير "العالم بما كان وما يكون"[4]، ثم استعمل "بصير" مع الدرجات التي أعدها الله جل وعلا للمتقين، "فالبصير" هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها بغير جارحة"[5]، ولذلك جعل لكل درجة عمل لها في السر والعلن.

[1] الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، ج04، ص25
[2] ابن منظور، مصدر سابق، ج 03، ص 239
[3] ابن عطية، مصدر سابق، ص 527
[4] ابن منظور، نفسه، ج 04، ص 226
[5] نفسه، ج 05، ص 64

ج: توازي أقل تقاربا:

يظهر في فواصل الآيات التي تنتمي لحقل دلالي واحد، كأساليب المدح والذم

في قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبيس المهاد﴾ آل عمران 12

وقولـــه: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبيس مثوى الظالمين﴾ آل عمران 151.

وقـولـــــه: ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبيس المصير ﴾ آل عمران 162.

فواصل هذه الآيات تنتهي بفعل الذم "بئس" على النحو الآتي:

(الأولى والأخيرة): الفعل الجامد "بئس" + فاعله. مع زيادة وصف الفاعل في الآية الثانية.

فتارة يعبّـر سبحانه "ببئس المهاد" إن تعلق السياق بالحديث عن أعمال الكفار، فكأنهم يفترشون بها لأنفسهم في جهنم وبيس المهاد، وإن تعلّق بالحديث عن إقامة المشركين على الكفر استحقوا الجزاء من جنس عملهم، وهو الثواء (بمعنى الإقامة) في جهنم، أمّا حين تعلّق بالمفارقة بين أهل الرضوان وأهل السخط، فاستعمل سبحانه "بئس المصير" وسبقها قبلُ بذكر "مأواه جهنم" متحدثا عن "صاحب المعاصي الذي خرج يطلب ما ينفعه فرجع بما يضره، ... رجع بالخيبة"[1]، فكأنه آوى إلى ما صيّر له نفسه وبئس المصير والمرجع، فاستحق أن يكون كما قالت العرب "استجار من الرمضاء بالنار"[2].

وستكون لنا وقفة مفصلة، مع دور السياق في التوازي في الفصل الموالي، وإنما قدمنا الحديث في عمومياته لضرورةٍ جذبنا إليها الحديث عن أنواع التوازي في التنزيل.

1 الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، ج04، ص 157.

2 أصله بيت شعر، ثم صار مثلا يضرب لليأس من الشئ وذاك قولهم:

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

الفصل الثاني:

بنية التوازي في التعبير القرآن

المبحث الأول: أثر السياق في صناعة بُنية التوازي .

المبحث الثاني: الفاصلة القرآنية والسجع .

المبحث الثالث: الإيقاع في القرآن الكريم .

المبحث الأول: أثر السياق في صناعة بنية التوازي

يعدّ السياق من الأسس المتينة التي ينبغي مراعاتها أثناء دراسة النصوص، خاصة الدينية منها، فهو المرجعية الرئيسة لفهمها وتفسيرها، "وينبغي أن يُنظَر إلى الكلمةِ قبلَ دخولها في التأليف، وقبلَ أنْ تصيرَ إلى الصورة التي بها يكونُ الكَلِمُ إخباراً وأمْراً ونَهياً واستخباراً وتعجباً، وتؤدِّيَ في الجملة معنًى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلاَّ بضَمِّ كلمةٍ إلى كلمةٍ، وبناءِ لفظةٍ على لفظةٍ، وهل يُتَصوَّر أن يكونَ بين اللفظتين تَفاضُلٌ في الدَّلالة، حتى تكونَ هذه أدلَّ على معناها الذي وُضعتْ له من صاحبتها على ما هيَ موسومةٌ به"[1] فالسياق هو روح النظم القرآني، وله هيمنة واضحة في تحديد مفهوم التوازي القرآني، فحينما يقوم الدارس بتأمل البنيات المتشابهة والمعاني المختلفة، يدرك أن جوهر التشابه والتعارض الواقع بين الآيات، لا يفهم على حقيقته إلا إذ رُبطت الآيات بسياقاتها المختلفة، لاسيما وأنه –أي السياق– يُبرِز العلاقة الجامعة بين الدلالات التي تبدو في بداية الأمر متباعدة فيما بينها، دون أن نغفل طبعا أثر التكرارت الإيقاعية الصوتية والمعجمية والدلالية المصاحبة لبنية التوازي، التي تلم شتات المعاني لتأدية المعنى المقصود، من خلال حسن التأليف وجودة الاختيار للفظ المناسب لموقعه ودلالته.

ولكي نبيّن أثر السياق في تشكيل بنية التوازي القرآني، لابد من وقفة مع مصطلح "السياق" تمكّن من ذلك، لأن النص القرآني –خاصة– تحكمه علاقات لغوية ودلالية تتناغم بها أجزائه.

فبالرجوع إلى مفهوم المصطلح في المعاجم العربية، تستوقفنا المعاني اللغوية المبثوثة فيها، بدءً بأصل مادته "سوق" إلى استعمالاتها غالبا للدلالة على متعلقات بالإبل، ففي اللسان "السوق موضع البياعات، سُميت بها لأن التجارة تجلب إليها وتساق المبيعات نحوها، ساقَ الإبلَ وغيرَها يَسُوقها سَوْقاً وسِياقاً ... أي حادٍ يحدو الإبل فهو يسوقهن بحُدائه، ومنه: رويدك سوقك بالقوارير، وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت.

[1] عبد القاهر الجرجاني، الدلائل، ص 44.

ويقال: ساق إليها الصداق والمهر ... لأنّ أصل الصداق عند العرب الإبل وهي التي تساق، والسياق: المهر.

وساق بنفسه سياقا: نزع بها عند الموت ... ويقال: فلان في السياق أي في النزع"[1]

وفي الأساس " هو يسوق الحديث أحسن سياق، و" إليك يساق الحديث " وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده"[2]

ورغم تعدد المعاني اللغوية –كما يبدو– تظل في مجملها دالة على " انتظام متوال في الحركة لبلوغ غاية محددة"[3]، كما تفعل الإبل والأنعام عامة في سيرها إلى الرعي أو السفر ...الخ

أما في الاصطلاح، فإن أقرب تعريف تطمئن إليه النفس حين يتعلق الأمر بتدارس الذكر الحكيم هو "تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود دون انقطاع أو انفصال"[4]

والمراد **بتتابع المعاني** ترابط المعاني الفرعية لخدمة المعنى العام في السورة أو مقطع منها، و**بانتظامها** قصدية انتظام تلك المعاني من لدن الله سبحانه بحيث يحرم التقديم والتاخير فيها، و**في سلك الألفاظ القرآنية** إشارة إلى أن اللفظ القرآني هو الذي يحمل معانيه، أما **لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود** فتشير إلى الغاية الأصلية للسياق القرآني، وهي إعطاء معنى تاما يؤدي غرض القرآن المنزّل لأجله، بتوصيل الرسالة للقارئ عن طريق المعاني المتوالية، و**دون انقطاع وانفصال** أي من غير انقطاع للمعاني التي تتحدث عنها الآيات، أو دون وجود فاصل لا يخدم موضوع الآيات والسور[5]، لأن النص القرآني وحدة

[1] ينظر ابن منظور، مصدر سابق، ج 10، ص 166.

[2] ينظر الزمخشري، أساس البلاغة، ج 01، تح: محمد باسل عيون السود، ط 01 (1998)، دار الكتب العلمية بيروت ص 484.

[3] المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني، ط 01 (2008)، دار وائل عمان، ص 13 .

[4] نفسه، ص 15.

5 ينظر هانم محمد حجازي الشامي، أثر السياق في بنية الأسماء المنتهية بأسماء الله الحسنى، دط (2013)، مكتبة الآداب القاهرة، ص 16.

دلالية متسلسلة، توصلك الآية منه إلى جارتها في تماسك عجيب، يستحيل معه إسقاط أو زيادة حرف فيه.

ولابد للباحث أثناء دراسته للنص القرآني من مراعاة أمور ثلاثة:

أولا: الأغراض التي سيق من أجلها الخطاب (مراد الباري منه).

ثانيا: النظم والأسلوب البياني في القرآن ركيزتان لازمتان في السياق القرآني.

ثالثا: الظروف المحيطة بالنص القرآني (أسباب النزول، طبيعة المتلقي...)

وقد أشار الشاطبي (ت790هـ) إلى هذا بقوله إنّ " المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان" [1] ومن أجله كانت معرفة الحيثيات المحيطة بالنص ضرورة ملحة في تحديد الدلالات، يقول الزركشي " السياق يرشد إلى تبيين المجملات، وترجيح المحتملات، وتقرير الواضحات. وكل ذلك بعرف الاستعمال. فكل صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحا، وإن كانت ذما بالوضع. وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذما وإن كانت مدحا بالوضع، كقوله تعالى: (ذق إنك أنت العزيز الكريم) الدخان 49"[2]، فهذا الأسلوب في ظاهره مدح وباطنه عكس ذلك، وإنما سيق هكذا تهكما ومعناه ذق إنك أنت الذليل المهان، والذوق هاهنا مستعار للإحساس، وصيغة الأمر مستعملة في الإهانة [3]، فالسياق القرآني يتداخل مع بعض الظواهر اللغوية المُسهِمة في ترابط النص حتى يصيرَ كأنه إياها، ثم ما ينفك هذا الوهم أن يتبدد بعد إدراك الفوارق بينها.

1 شايع الأسمري، مع الامام أبي إسحاق الشاطبي في مباحث من علوم القرآن الكريم وتفسيره، دط (2002)، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ص 60.

2 الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، دتح، ج08 ، ط01 (1994) دار الكتبي ص 55.

3 ينظر، ابن عاشور، مصدر سابق، ج 25، ص 316.

فقد يُظنّ أنّ السياق هو نفسه النظم الذي قال به الجرجاني في الدلائل، ولكنه ليس هو، اللهم إلا أنْ يُسمّى به تجوزا في العبارة، كما جاء عن ابن جرير في تفسيره "اتساقا على نظم الكلام وسياقه"[1]، أي السير وفقه.

فالنظم كما هو معلوم توخي معاني النحو، التي توصل المتكلم إلى إيراد معاني كلامه مرتبطة بألفاظها، كما سبق تقريره في إعجاز القرآن "وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى قائم به، ورباط لهما ناظم ... والقرآن أنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمَّنا أصح المعاني"[2]، فالنظم يكشف عن حسن ارتباط المعاني بألفاظها، وما ينشأ عنها من أوجه اختلاف في القضايا البلاغية كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والتعريف والتنكير، وما يصاحبها من نكت وأسرار بيانية في التنزيل العزيز، أما السياق فيبحث -كما رأينا- عن ترابط المعاني السابقة واللاحقة، فالفارق بينهما إذاً، أنّ النظم هو علاقة اللفظ بالمعنى، أمّا الساق فهو علاقة المعنى بالمعنى[3].

وقد يُتوهم أن المناسبة بين الآيات والسياق شئ واحد، لتقارب العلاقة الوظيفية بينهما، بيد أن الأمر ليس كذلك، فالمناسبة توقيف إلهي يبرز الترابط اللفظي والمعنوي بين الآي، وأكثر لطائف القرآن مودَعة في الترتيبات والروابط [4] "وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيَقْوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، فنقول ذِكْرُ الآية بعد الأخرى إمّا أن يكون ظاهر الارتباط لتعلّق الكلم بعضه ببعض، وعدم تمامه بالأولى فواضح، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل"[5] فوظيفة المناسبة الكشف عن وجوه الربط بين السور والآيات أو المقاطع، خاصة التي لا تبدو لها علاقة مع ما قبلها وما بعدها، وقد جرت عادة القرآن أثناء ذكره للأحكام، أن يذكر بعدها وعدا ووعيدا ليكون باعثا على العمل بما سبق[6]، ومتعلقا بما لحق، هذا بالنسبة للآيات

1 ينظر، المثنى عبد الفتاح محمود، مرجع سابق، ص17

2 الباقلاني، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، ط 05 (1997)، دار المعارف، ص 15.

[3] ينظر المثنى عبد الفتاح محمود، نفسه ص 18.

[4] ينظر هانم محمد حجازي الشامي، مرجع سابق، ص 51.

[5] السيوطي، الاتقان، ج03، ص 371.

[6] نفسه ص 371

والمقاطع، أمّا بين السور فالأمر يحتاج في استنباط تلك اللطائف إلى علامة كالسيوطي، الذي يقول مثلا في العلاقة بين الفاتحة وتاليتِيها (البقرة وآل عمران) "إذا اعتبرتَ افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى ... كافتتاح سورة البقرة بقوله: ﴿الم ذلك الكتاب﴾ فإنه إشارة إلى الصراط في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط قيل لهم: ذلك الصراط الذي سألتم الهداية إليه هو الكتاب وهذا معنى حسن يظهر فيه ارتباط سورة البقرة بالفاتحة"[1]، أما السياق فهو الرابط لتلك الآيات بعد معرفة معانيها المتضمنة في الآيات السوابق واللواحق.[2]

والرأي لدي أن الأمر يبدو أشبه بعِقد مرصّع بالجواهر، فالمناسبة بين الآي هي دره أو جواهره مشتتة، والنظم هو الذي يضم بعضها إلى بعض، ويجعل كل جوهرة بإزاء أختها ليحسُن مظهرها، والسياق هو الخيط الجامع أو الناظم لها في العقد، فتتمّ بذلك الصورة وتتضح الفوارق، ولقد سمّى العديد من علماء القرآن المهتمين بهذا، مصنفاتهم "بالنظم" كما فعل البقاعي في كتابه "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، وهو مصنّف بديع يروي الظمآن في هذا المضمار.

فإذا كان السياق نتاج ما مضى، فإن سلطته تسيطر على فهم المتلقي للآيات والسور، الذي ينبغي عليه فهمهما حسب مراد الباري منها لا كما يريده، لئلا يدخل في عموم قوله سبحانه ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ أل عمران 07، وتجدر بنا الإشارة هنا إلى دسيسة دخيلة هي "نظرية موت المؤلف" التي يروج لها شيعة البنيوية والتفكيكية،[3] بغية سلب القداسة عن القرآن، من خلال تمليك النص للقارئ يعبث به كما يشاء، لاغيا السياق الذي يجعل النص القرآني وحدة دلالية، يجمع إليه شتات الفهوم، لأنّ أسلوب التعبير القرآني لاسيما في القصص، قد ينجر من أمر إلى أمر، وكله جدير بأن يكون مقصدا، فيشفي الصدور ويجلو القلوب، ثمّ يعود إلى البدء فيصير كالحلقة[4] المتشابهة في بنائها الدائري المتقابلة في مواضعها، فيتحقق بواسطة التشابه والتقابل توازيا يستخلصه أهل البصيرة،

[1] السيوطي، الاتقان، ج03، ص 380 .

[2] ينظر، المثنى عبد الفتاح محمود، مرجع سابق، ص 19.

[3] الغرض هنا ليس إبطال تلك المناهج – فهو شأن أهل الاختصاص–، بل تبيان بطلان هذه الجُزئية مع نصوص الوحي خاصة (القرآن والحديث).

[4] ينظر المثنى عبد الفتاح محمود، نفسه ص 83 .

ومثاله قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (1) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (5) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (6) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8)﴾ الأنفال 01-08

إن المتأمل في الآيات يلحظ ابتدائها بالحديث عن الأنفال، وأن المرجع في تقسيمها إلى حكم الله ورسوله، والمؤمن الحقّ وقّاف عند حكمهما، ولذلك أعقب الحديث بعدها بالشروع في تعداد صفات المؤمنين، ثم أورد سبحانه تشبيها بقوله ﴿كما أخرجك﴾ يدقّ فهمه على غير الحصيف في استظهار علاقته بسابقيه، والجواب:

"أنه متصل بما قبله: إما بتقدير مبتدأ محذوف، هو اسم إشارة لما ذكر قبله، تقديره هذا الحال كحال ما أخرجك ربك من بيتك بالحق، ووجه الشبه هو كراهية المؤمنين في بادئ الأمر لما هو خير لهم في الواقع.

وإما بتقدير مصدر لفعل الاستقرار الذي يقتضيه الخبر بالمجرور في قوله ﴿الأنفال لله والرسول﴾ إذ التقدير: استقرت لله والرسول استقرارا كما أخرجك ربك، أي فيما يلوح إلى الكراهية والامتعاض في بادئ الأمر، ثم نوالهم النصر والغنيمة في نهاية الأمر، والمقصد من هذا الأسلوب الانتقال إلى تذكيرهم بالخروج إلى بدر وما ظهر فيه من دلائل عناية الله تعالى برسوله ﷺ وبالمؤمنين"[1]، وفيه وحدة موضوعية تُستشف من إرادة تعميق طاعة الله ورسوله في أمرهما، وعدم الاعتراض عليهما مطلقا، كما قال سبحانه ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ الأحزاب 36، وعليه فنظرية موت المؤلف مرفوضة البتة في النص القرآني، لما لها من تحوير للدلالة وفساد للمعنى، وهل أوقع سائر الفرق المبتدعة في الضلال إلا سوء الفهم عن الله ورسوله.

[1] ابن عاشور، مصدر سابق،ج 09، ص 263

إضافة إلى ما سبق، فإن التوازي الذي يحققه التشابه البادي من تكرار أجزاء من الآيات، يوحي بأنه تكرار لغو لا طائل منه، وحاشا أن يكون الأمر كذلك في التنزيل العزيز، يقول الإمام البقاعي عن التكرار في القصص القرآني "إن كل سورة أعيدت فيها قصة فلمعنى ادّعي في تلك السورة، استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذي سيقت له في السورة السابقة، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض، وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم، والإيجاز والتطويل مع أنها لا يخالف شئ من ذلك أصل المعنى الذي تكونت عليه القصة"[1] وقد أشرت لشئ من هذا في الفصل السابق بإيجاز، بيد أن المقام هنا أدعى للتفصيل فيه، فقصة إبليس وهي من أكثر القصص حضورا في التنزيل، أورد منها سبحانه في كل سورة ما يناسب معناها العام، ولذا يقول الدكتور فضل عباس "والتكرار كما نراه هو إعادة اللفظ نفسه في سياق واحد ولمعنى واحد، فإذا لم يتوفر هذان الشرطان أي لم يكن المعاد اللفظُ نفسه، أو ذُكر اللفظ أكثر من مرة ولكن لكل موضع سياقه الخاص ومعناه الخاص، فإن ذلك لا نسميه تكرارا أبداً "[2] وهذا لب التوازي الذي عُرف آنفا "تشابه البنيات واختلاف المعاني" وهو قول سليم يؤكده الاختلاف في التعابير المتعددة في الموضوع ذاته.

فقصة إبليس في سورة البقرة، ذكر الله جل وعلا فيها جرأته على عصيان أمر الرب سبحانه، رغم انقياد الملأ الأعلى جميعا له، قال ﷻ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة 34، وفي الأعراف فصّل الحديث عن سبب تكبّره بعدم السجود لآدم عليه السلام، وهو الخِيرية التي أقرّها لنفسه، فأضاف إلى جريمة الكبر معصية الحسد، ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ الأعراف 12، وعزمه على إغواء ذرية آدم جميعا، وتتوالى القصة في عديد السور (الحجر والإسراء والكهف وطه والشعراء سبإ وطه... الخ)، لتشكّل في مجموعها القصة الكاملة، التي جاء بها الله سبحانه ليبيّن لعباده ما يحفظ إيمانهم، وتُذكّر من سار على النهج الشيطاني أن مصيره كمصير إبليس، لأنه حين ركبته النفسية الإبليسية صار مستحقا لمصيره، فكل قرين بالمقارَن يقتدي، وفرّق سبحانه القصة في الذكر الحكيم، ليمحق تلك النفسية الخبيثة من النفوس حتى تزكو وتتطهر من الرجس، وليظل المؤمن منها على وجل، ولربما قرنها سبحانه بقصص أخرى، أُشربت قلوب

[1] المثنى عبد الفتاح محمود، مرجع سابق، ص 90

[2] نفسه، ص 90 .

أصحابها تلك النفسية حتى صارت شبيهة بإبليس اللعين، قال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ سبإ 20-21، وأوجز سبحانه موقف الشيطان من أتباعه يوم القيامة، مذكّرا إياهم ببراءته منهم وانشغاله عنهم بذنوبه، وأنه سبحانه ألْهَمَ الأنفس بذرتي التقوى والفجور، فمن اختار الأولى نجا، ومن نزعت نفسه إلى الثانية استحوذ عليها الشيطان، لأنها مستعدة لذلك فقال ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إبراهيم 22

ومن أهم الموضوعات التي يعالجها السياق، والتي لها صلة وثيقة بمفهوم التوازي الحديث ما اصطلح عليه علماء القرآن، "المتشابه اللفظي" وهو أن تجيء الآيات القرآنية متكررة في القصة الواحدة من قصص القرآن، أو موضوعاته في ألفاظ متشابهة، وصور متعددة، وفواصل شتى، وأساليب متنوعة، تقديما وتأخيرا، وزيادة ونقصا، وذكرا وحذفا، وتعريفا وتنكيرا، وإفرادا وجمعا، وإيجازا وإطنابا، وإبدال حرف بحرف آخر، أو كلمة بكلمة أخرى ونحو ذلك، مع اتحاد المعنى لغرض بلاغي، أو لمعنى دقيق يراد تقريره"[1]، وإن تلك المعاني البلاغية الدقيقة، لا يُتوصل إليها إلا من خلال السياق بضم المعاني بعضها إلى بعض، مما قد يتوهمه التالي تكرارا خاليا من الفوائد والأسرار، فالمتشابه اللفظي في الآيات القرآنية على هذا النحو لون من ألوان الإعجاز في القرآن الكريم[2]، لأن عمود البلاغة القرآنية لا يقبل التبديل بين أجزائه.

وللسياق دور لا يخفى في توجيه المتشابه، "فهو الطريق الموصل إلى فهم تغاير الألفاظ في الآيات المتفقة في بنائها العام "[3]، فالمتأمل في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ النحل 61

1 الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، تح: محمد مصطفى آيدين، ج 01، ط 01 (2001)، جامعة أم القرى السعودية، ص 56.

2 نفسه، ص 56.

3 المثنى محمود، مرجع سابق، ص 166.

وقوله كذلك: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ فاطر 45

يلحظ المتأمل في الآيتين اختلافا بارزا، تصوره لفظتي (بظلمهم، بما كسبوا) على الرغم من اتفاق موضوعهما، المتمثل أساسا حول سبب استحقاق الناس المؤاخذة من لدنه سبحانه، والجواب:

أنّ "آية النحل" سبقت بظلمين، والظلم كما هو متعارف عليه، وضع الشيء في غير موضعه[1]، أولهما: اعتقادي حيث نسب المشركون ما يكرهون — البنات – لله سبحانه فقالوا "الملائكة بنات الله" افتراء عليه[2]، فحدّث سبحانه عن كفرهم "بالظلم" وقد وُصف الشرك بالظلم في التنزيل فقال:﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ لقمان13 فهم بتلك القسمة الضيزى ما قدروا الله قدره، فقادهم ذلك لاتهام الله جل وعلا بتعاطي أسباب التناسل والمكاثرة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فخربت عقيدتهم لقبح مقالهم واعتقادهم

ثانيهما: مادي محسوس تجسّد في استبقاء الذكور ووأد البنات خوفا من العار، فظلموا أنفسهم باتباع أعراف فاسدة من جهة، وبتصرفهم فيما لا يملكون منه شيئا من أخرى.

أما آية فاطر فسُبقت بأحكام عامة (كفر، فسق، معصية، ظلم)، والكسب يشمل الظلم وغيره، فجمعت الآية بذلك أحكاما متعددة، وإن في إهلاك الدواب "إنذارا للناس لعلهم يقلعون عن إجرامهم" [3].

فكانت الآية الأولى أخص من الثانية لذا ناسبها "الظلم"، والثانية أعم من الأولى لذا ناسبها "الكسب".

ولقد سلف لنا القول أنّ التوازي عنصر تأسيسي وتنظيمي في آنٍ واحد، والمعنى أنه جامع لعلوم لغوية وأدائية شتى، تنسجم بواسطته أساليب وسياقات نحوية على شكل متواليات لغوية، تنضم إلى بعضها على هيئة أنماط سياقية فنية متسقة، يبرزها النظم شكلاً وإيقاعاً، إذ الأنماط لا ينتظمها في بنائها التركيبي سوى هيكل نحوي محدد، يحاول رسم العلاقة بين النحو والأداء من جهة، وبين النظم والممارسة الإيقاعية المتسلسلة المتوالية من جهة أخرى، فيكون التوازي بذلك منهج بحث علمي شائع في النظم والإيقاع القرآني،

1 ابن منظور، مصدر سابق، ج 12، ص 373.

2 المثنى محمود، مرجع سابق، ص 166

3 ابن عاشور، مصدر سابق، ج 22، ص 340.

يسهم في بناء وحدة النص ضمن سياق إيقاعي معين يدرس متواليات اللغة وفق مديات إيقاعية معينة، هي نفسها تكون جرساً صادحاً للغة القرآن المتناسقة في آياتها على نحو خاص بها [1]، أي أنه ينطلق في دراسة التراكيب من نظامها النحوي البسيط ليكشف عن جوهر الترابط التركيبي الذي يحققه وضع تلك التراكيب في سياقاتها، وبديهي أن يصحب ذلك دراسة للإيقاعات التي تنتجها تلك السياقات المختلفة.

ففائدة السياق القرآني أنه " يكشف عن حسن اتساق المعاني وارتصافها، وتحدد المعاني وتغايرها، بحيث تحمل كل وحدة لفظية دلالة معنوية مستقلة، هي لجاراتها عاضد متين، فكل معنى قائم بنفسه ومستقل من جهة، وهو مع ما قبله وما بعده منخرط في سمط دقيق، ومرتب على نسق أنيق من جهة أخرى، فهذه المعاني التي بلغت من البراعة والبداعة ما بلغت، محال أن تعاد في مكان قد ذكرت في غيره على وجه التكرار، إذ أن هذا لا يستقيم مع جزالة القرآن وفخامة معانيه "[2]، ومن أجله رفض كثير من العلماء القول بالتكرار في القرآن، وإلا لجاز التبديل بين متشابهاته من غير أن يحوّر ذلك في المعنى، وقد علمنا أن ذلك لا يكون في كتاب الله، كما أن الاجتزاء لنصوصه وتفسيرها منعزلة عن سياقاتها، ضرب من المغالطة التي يلزم التصدي لها وردّها.

[1] ينظر، عبد الله الجياني، التوازي التركيبي في القرآن، ص 02

2 المثنى محمود، مرجع سابق، ص 233

أثر السياق في توازي الآيات المنتهية بأسماء الله الحسنى:

جاء في دائر المعارف الإسلامية ما نصه، "يعطي القرآن انطباعا بأنه قد كُتب بطريقة عشوائية، ... وبخاصة حين يلاحظ القارئ أن عبارات معينة مفضلة مثل، إن الله غفور رحيم، إن الله عليم حكيم، ... لا تتضح صلتها أو يبدو عدم صلتها على الإطلاق بسياق ما قبلها"[1]، وهذا زعم باطل ترفضه الدلائل الكثيرة، ومنها أنّ مخالفة الذوق السليم لا تنتبه إليه الفطرة السوية بل ترفضه، وقد بُث في الأسفار القديمة، أن أعرابيا سمع قارئًا يقرأ قوله تعالى ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوْا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ البقرة 209. بإبدال 'عزيز حكيم بغفور رحيم' فقال الأعرابي بسليقته اللغوية السليمة: إن الحكيم لا يذكر الغفران بعد الزلل لأنه إغراء عليه، منبِّها القارئ للخطأ الذي وقع فيه.

وقد ارتأيتُ في هذه الجزئية توضيح أثر السياق في إحداث التوازي، في الآيات المنتهية بأسماء الله الحسنى، قصد الخروج من التنظير إلى التطبيق، فبالمثال يتضح المقال، وذلك بآيتين كثير ما طرح تشابه بنياتهما واختلاف معناهما في نفسي علامات استفهام أزالها هذا البحث الممتع، لازمتني مذ كتب شيخي – رحمه الله – في لوحي:.

سبق قلوبكم به في لن تنال ووخِّر الأنفال يا ولد الحلال

أولهما: قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ 126

وثانيهما: قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ 10

ما الحكمة من قوله في الأولى "قلوبكم به" وفي الثانية العكس؟ وما الحكمة كذلك من ختم الأولى "بالعزيز الحكيم" والثانية ب "إن الله عزيز حكيم" ؟

1 أحمد عمر مختار، دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته، ط 02 (2006)، عالم الكتب القاهرة، ص 79.

إن الجواب يستحيل من دون التعريج على سياق الآيتين:

- موضوع الآيتين تأكيد مصدر النصر، بأسلوب الحصر "وما النصر إلا من عند الله"، فالأولى نزلت في سياق الحديث عن يوم أحد، والثانية نزلت في سياق الحديث عن يوم بدر.
- في آل عمران قال سبحانه "بشرى لكم" وحذف "لكم" من الأنفال، لأن المقام في الأولى مقام إسهاب لتعميق الإيمان بقدرته سبحانه، ومقام امتنان وتذكير بسبق الإحسان منه لهم في بدر مواساة لهم، وفيه "دلالة على تكرمة الله تعالى إياهم بأن بشرهم بشرى لأجلهم كما في التصريح بذلك في قوله تعالى: ألم نشرح لك صدرك"[1].

أما في الثانية فالمقام للإيجاز والعتاب على كراهية الخروج إلى بدر في أول الأمر، ثم إن آية آل عمران جاءت بشارتها شاملة للمؤمنين جميعا، أما في الأنفال فهي للنبئ وللذين أذعنوا لأمر الخروج، فإغفال" لكم" هنا أدعى تجنبا للتكرار الذي لا طائل منه، لسلوف ذكرها قبل هاته الآية في قوله "فاستجاب لكم"، فناسب الذكر الإسهاب والحذف الإيجاز.

- في آل عمران قال سبحانه "قلوبكم به" وعكس ذا في الأنفال، لأنه لما عمّم بشرى المدد ب" لكم " في آل عمران، كان الأنسب تقديم القلوب الملابسة لضميرهم موازنة لقوله (لكم)[2]، أما في الأنفال فتقديم المجرور فيفيد الاختصاص، والمعنى لتطمئن بالمدد قلوبكم لا بغيره، تسكينا للوجل الذي اعتراهم بادئ الأمر من الخروج لبدر.
- خُتمت آية آل عمران ب "العزيز الحكيم" وهما صفتان للفظ الجلالة "الله" المذكور قبلهما، لأنه سبحانه نصرهم في بدر وهم يومئذ أذلة، فتكون الصفتان مؤكِدتان لخبر اقتصار النصر من عند الله عز وجل، أما آية الأنفال فاختتمت ب "إن الله عزيز حكيم" وهي جملة تعليلية (تتكون من: إن ومعموليها + خبر ثان 'حكيم' خبر المبتدأ 'النصر') وسيقت مؤكَّدة منكَّرة لأنه سبحانه نـزّل المخاطبين منزلة المتردد في اتصافه سبحانه بالعزة والنصر، "فكيف لا يهتدون إلى أن الله لما وعدهم الظفر بإحدى الطائفتين، وقد

1 ابن عاشور، مصدر سابق، ج 04، ص 78.

2 هانم محمد حجازي، مرجع سابق، ص 205.

فاتتهم العير أن ذلك آيل إلى الوعد بالظفر بالنفير"[1]، فهو سبحانه حين عزّ وحكم قدّر ملاقاة النفير، ونصر عليهم ليكون ذلك باعثا على رسوخ الإيمان بوعد الله سبحانه.

عقب هذا العرض البياني للآيتين، يتضح دور السياق في تحقيق التوازي بين المتماثلات القرآنية، من خلال إدراك الفوارق بين البنى المتشابهة خاصة، فمن حيث:

البناء النحوي: نجد الآيتين متكونتين من:

الواو الاستئنافية + ما النافية + الفعل الماضي + المفعول المتقدم (الهاء) + الفاعل + حرف الاستثناء + المفعول الثاني (الجار والمجرور المتعلق به في آية عمران) + حرف العطف (الواو) + لام التعليل + الفعل المضارع + الفاعل + الجار والمجرور [تقديم وتأخير] + حرف العطف (الواو) + المبتدأ + حرف الاستثناء + حرف الجر + الظرف + المضاف إليه + [الصفة في آل عمران)، و (إن ومعموليها) والخبر الثاني في آية الأنفال].

إنّ تكرار هذا البناء النحوي في سياقين مختلفين، يسهم بالضرورة في تكرار الإيقاع الصوتي والترابط الدلالي وتجانس النص القرآني ببعضه، بحيث يثير فيك إعادة ما ذُكر في سياق النصر والعتاب، الفضول لمعرفة علاقته بما يقابله في سياق الهزيمة والمواساة، ومن ثمّ تُدرِك أن أحسن تفسير للقرآن هو القرآن ذاته.

وهاكم فيما يلي أمثلة تبين مراعاة السياق القرآني لمثل تلك الآيات، التي تصنع نهايتها توازيا بديعا لأسماء الله الحسنى:

- اسم الله "البصير" يَـرِدُ هذا الاسم في الاستخدام القرآني فاصلة: منفردا أو بعد صفتي 'السميع والخبير' خاصة، ولكل موضع مسوغات تُحتّم ذلك، فحينما يتقدم السمع 'السميع البصير' "يومئ إلى أن نافذة السمع في اكتساب المعرفة أوسع بكثير من نافذة البصر"[2]، أما عند تقديم 'الخبير' فذلك يدل على أن الله مُطّلِعٌ على بواطن الأمور وخفايا الأسرار، فالأدعى أن يحتاط الإنسان في سره قبل علانيته، لأن الله عالم به بصير بما يفعله، وهو أقرب إليه من حبل الوريد.

[1] ابن عاشور، نفسه، ج 09، ص 277 .

[2] أحمد عمر مختار، مرجع سابق، ص 85

● اسم الله " العليم" وهو من أكثر الأسماء اقترانا بغيره، (السميع، الحكيم، الواسع، الخبير، الشاكر، العزيز، الحافظ، الخلاق، القدير، الحليم، الفتاح، القدير) ولكلٍّ ما يبرر اقترانه، فاسم "الحكيم" الذي يقرنه غالبا، يتقدم عليه حال الحديث عن الحكمة الإلهية في تصريف ملكه، كقوله سبحانه ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الأنعام 83 في سياق الحديث عن حجاج نبي الله إبراهيم قومَـه، أما إن كان السياق في الأحداث الإنسانية التي تستلزم حصول العلم، قدّم اسم " العليم" كقول ربنا ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ يوسف 06.

اسم الله " الغفور " يقترن عادة مع " الرحيم " للمناسبة الدلالية التي بينهما إذ المغفرة تقتضي الرحمة والعكس، ويقترن مجيئه كذلك مع (الحليم، الشكور، الودود، العفو، العزيز) على أن اقترانه بالأسماء الأربعة الأولى معلوم لتقارب دلالتها، فما وجه المناسبة في مجيئه مقرونا "بالعزيز" ؟ قال عزّ اسمه ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ سبأ 02، اسم الله العزيز معناه " الغالب الذي لا يعجز عن شيء، وذكره مناسب للجزاء المستفاد من قوله: "ليبلوكم أيكم أحسن عملا" ...، أي ليجزيكم جزاء العزيز، فعُلم أن المراد الجزاء على المخالفات والنكول عن الطاعة وهذا حظ المشركين الذين شملهم ضمير الخطاب في قوله "ليبلوكم"، وأما الغفور فهو الذي يكرم أولياءه ويصفح عن فلتاتهم فهو مناسب للجزاء على الطاعات وكناية عنه، قال تعالى: "وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى" طه 82 فهو إشارة إلى حظ أهل الصلاح من المخاطبين"[1]، ومن ثم فالعزيز يغفر لمن يشاء دون أن يسأل عن ذلك .

إن العدول عن اسم إلى آخر له دلالته البلاغية الظاهرة، وأنسب مطية لفكّ شفرة الغموض البادية من المزاوجة بين الاسمين المتباعدين، هي السياق الذي يعترض طريق فهم المتلقي، ويأبى الانزياح عنه إلا بعد تحكميه.

[1] ابن عاشور، مصدر سابق، ج 29، ص 15.

دور الضمائم الإفصاحية في صناعة توازي السياق القرآني:

رأينا آنفا أثر السياق في تشكيل بنية الآيات المنتهية بأسماء الله الحسنى، وسنحاول هنا تبيين دور الضمائم الإفصاحية التي يفرغها السياق في التركيب النحوي، على أن الضمائم الإفصاحية: " أدوات نحوية تنظم أو تستدعي أساليب معينة للإفصاح في التركيب اللغوي"[1]، أي أنها تكشف عن مواقف وإيحاءات نفسية وانفعالية تشكل نقطة تحوّل دلالية بارزة في السياق القرآني خاصة، فقولنا "والله إن محمدا لرجل صادق" تحتوي على ثلاثة ضمائم توكيدية هي: القسم: (والله)، والناسخ (إنّ)، واللام المزحلقة، والغرض من إيرادها مجتمعة في تركيب نحوي واحد إثبات صفة الصدق ودحض شبهة الكذب عن محمد.

ومن شأن هذه الضمائم شحن التراكيب اللغوية بمعان عميقة، ولقد رأينا النحاة يربطون كل ضميمة بفائدتها المعنوية، فيقولون عن "إلا" أداة استثناء وحصر، وعن "إن وأن" أداة توكيد و"الباء" حرف جر يفيد الإلصاق، ... الخ، كما يفرق البلاغيون بين المخاطبين (خالي الذهن من الحكم والشاك فيه والمنكِر له)، في طريقة إلقاء الخبر مراعاة لمقتضى أحوالهم.

ولتوضيح ذلك نستعين ببعض الضمائم التي لها حضور واسع في التنزيل العزيز، لأنّ الإحاطة بها جميعا لا يستوعبها هذا البحث المخصص لغيرها، ولكن ما لا يدرك جُلّه لا يُترك كله.

أ: ضمائم الاستثناء (إلا):

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سبأ 43

احتوت الآية على ثلاثة متواليات تركيبية أفرزها الاستثناء، وفق البناء النحوي التركيبي التالي:

قال + حرف نفي + مبتدأ (اسم إشارة) + أداة الاستثناء (إلا) + خبر + نعت

وهي على التوالي:

قالوا ما هذا **إلا** رجل/ قالوا ما هذا **إلا** إفك/ إن هذا **إلا** سحر.

[1] هاني صبري، توازي الضمائم في النسق القرآني، مجلة التربية والعلم بغداد، ع 04 (2008)، ص 128.

والمقْصِد من إيرادها متوالية في تركيب لغوي واحد، بعد أن ذكر سبحانه تكذيبهم لأصول الديانة من قبلُ، الانتقال إلى حكاية تكذيبهم للنبي صلى الله عليه وسلم بغية الصدّ عنه، من خلال التكذيب المباشر في حضوره صلى الله عليه وسلم أولا، واستعمال أسلوب القصر ثانيا للتقليل من:

شخص الرسول الكريم: بقولهم (ما هذا **إلا** رجل) نفيا للرسالة عنه، وإثارةً لعواطف الحمية بعد تسفيهه لعقولهم المعطلة، بسبب حجرها على موروث آبائهم وعاداتهم.

معجزة القرآن: بقولهم (ما هذا **إلا** إفك مفترى) تكذيبا به ونفيا لإلهية مصدره، ومحاولة لتثبيت صفة الأساطير عليه، لما يحوي بين دفتيه من قصص الغابرين.

شأن جميع ما جاء به النبي: في قولهم (إن هذا **إلا** سحر) تشبيها للآيات بكلام المشعوذين الذي لا يفهم، وتشبيها للمعجزات بألعاب الخِفّة التي يمارسونها إيهاما للناس بطواعية الجن لهم.

كما أن تكرار الفعل "قالوا" في كل متوالية ينم عن الاهتمام بفظاعته قولهم وغرابته، وجرأتهم على تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم في حضرته ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ فصلت 41.

إن استجلاب الاستثناء مع النفي وإعادة فعل القول في المتواليات الثلاث، من شأنه التأثير في ضعاف النفوس وصرفهم عن اتباع الهدى، وتنوع دلالته في النص القرآني يجعله أكثر تماسكا، بحيث يأبى الزيادة والنقصان عليه وإن تَوَازتْ بُناهُ التركيبيةِ.

ب: ضمائم الاستفهام (الهمزة):

قال جل ثناؤه: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى * أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ العلق 09- 14

يُلحظ في سياق الآيات أعلاه تتابع ورود الاستفهام بحرف الهمزة واقترانه بالتعجب، والهمزة حرف حلقي مجهور يزلزل القلوب المعنية بالخطاب أولا، وينبه غير المعنية لتحذرَ مغبة الانزلاق فيما وقع النهي عنه.

فالآية الأولى نزلت لتكون شاهدة ومقررة لأول من تجرأ على النبي أثناء صلاته (أبو جهل)، حينما همّ أن يطأ رأس النبي حال صلاته بالحرم، فإذا "هو ينكص على عقبيه ويتقي بيده. فقيل له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا "[1]، والآية وإن كان نزولها في شخص أبي جهل فمدلولها عام، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما هو مقرر في علوم القرآن، ويشهد له كذلك التعبير بالفعل المضارع "ينهى" الدال على الدوام والاستمرار، وإنما سيقت بالاستفهام للفت الانتباه للفعل وفاعله وعقابه الذي ستترى به الآيات، تخويفا وزجرا لكل من تسوّل له نفسه ارتكاب تلك الجريمة النكراء.

ثمّ جاءت الآيتان الثانية والثالثة متوازيتين مشروطتين وفق النظام النحوي الآتي:

الاستفهام (أ) + فعل ماض + أداة الشرط (أن) + فعل ماض

فالموازة **الخارجية** يجسدها البناء النحوي أعلاه.

أما **الداخلية** فتجسدها المقابلة بين:

الهدى ومُسْتَتْبَعاتِها: الصلاة + الأمر بالتقوى

والتكذيب ومستتبعاته: النهي + التولي.

كما يجسدها اقتران الاستفهام بالشرط، وهو مشهود في لغة العرب وفي القرآن قبلها، –وإنما نزل القرآن بلغة العرب– " وبينهما من المناسبة ما لا يخفى، " ألا ترى أنك إذا قلت: أضربتَ زيدا ؟ كنت طالبا ما لم يستقر عندك، كما أنك لو قلت: إن تضربْ زيدا أضربْ، كان كلاما معقودا على الشك من حيث إن كل واحد من الشرط والجزاء علة لصاحبه، وليس قصدك أن تثبت الضرب على الإطلاق "[2]

[1] الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، ج 30، ص 442.

[2] هاني صبري، مرجع سابق، ص 133

فالقول الأول استفهام (أضربتَ زيدا) عن حقيقة وقوع الفعل، أما الثاني (إن تضربْ زيدا أضربْ) فشرط ونتيجة لوقوع فعل بعد آخر، وقد قَرَنتْ الآيتان بين الأسلوبين لتحديد المفارقة بينهما، فمن سوّلت له نفسه نهي عبدٍ عن إقامة عمود الدين – الصلاة –، أحرى بها أن تدعوه للصدّ عن الهدى والأمر بالتقوى، وعبر جل ثناؤه بحرف الشرط **"إنْ"** الغالب فيه عدم الجزم بوقوع فعله، ليكون أبلغ في التعجب لأن الحالة العجيبة من شأنها أن يُستفهم عن وقوعها استفهام تحقيق وتثبيت لنبئها[1]، وفي الوقت ذاته أشمل للتهديد والوعيد.

أما قول ربنا ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ فموازاتها لسابقاتها يصنعه تعالق المعاني وتوحد الإيقاع من جهة، والعدول عن الاستفهام التعجبي إلى الإنكاري من جهة أخرى، والحكمة منه نفي جهل حضور ذكرى العذاب عن أبي جهل أثناء صدوده وتوليه، و"كنى 'بأن الله يرى' عن الوعيد بالعقاب، وضمّن فعل' يعلم 'معنى يوقن فلذلك عدي بالباء ... وحذف مفعول 'يرى' ليعمّ كل موجود، والمراد بالرؤية المسندة إلى الله تعالى تعلق علمه بالمحسوسات"[2].

أما نظامها النحوي فمفارقٌ للمتواليات السابقة، حيث جاء كالآتي:

الاستفهام + حرف الجزم + فعل مضارع + حرف الجر + أن المصدرية + فعل مضارع

وتبعا لتغير النظام النحوي، كانت الجمل الثلاث الأولى متراوحة بين: الاستئنافية في الأولى والعطف في الثانية والثالثة اعتراضية، وجميعها لا محل لها من الإعراب، أما الآية الرابعة فتفردت بكونها في محل نصب مفعول به ثانٍ لفعل الرؤية[3].

ج: ضمائم النداء:

قال تقدست أسمائه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ الأنفال 15

وقوله أيضا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ الأنفال 20

[1] ابن عاشور، مصدر سابق، ج 30، ص447.

[2] نفسه ص 449.

[3] ينظر، الجدول في إعراب القرآن، محمود بن عبد الرحيم صافي، ج 30، ط 04 (1997)، دار الرشيد دمشق، ص 369.

افتتحت الآيتان بنداء أهل الإيمان بطلب الامتثال أمر الله، ولقد جاء في الخبر: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال " إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأعرها سمعك فإنه خير يُـؤمر به أو شر يُـنهى عنه "[1]، " فالنداء والأمر يمكن أن يحتلا نفس الموقع في جملتين متوازيتين"[2]، غير أنه في الأولى أمر نهي مشروط، وفي الثانية أمر نهي، ولذا استوجبتا تغاير نظامهما النحوي، فهو في الأولى:

حرف النداء + المنادى + حرف الشرط + فعل الشرط + الفاء + حرف نهي + فعل مضارع مجزوم

وفي الثانية:

حرف النداء + المنادى + فعل أمر + الفاعل + المفعول + الواو + حرف نهي + فعل مضارع مجزوم

يحقق النداء الموازاة بين الآيتين من خلال التعالق المعنوي الذي يفرضه السياق، ومن خلال ربط النداء بالأمر الذي يستلزم الطاعة، ويقتضي عدم التولي عن النهيين (التولي يوم الزحف، والتولي عن أمر الله ورسوله) لارتباطهما بالأمر المجزوم الذي لا حياد لمؤمن عنه، حيث رُدّ آخر الآية على أولها ليكونا نتيجة وسببا من بعضيهما –كما تُرد الأعجاز على الصدور في الشعر– فالإيمان يقتضي طاعة الأمر بعدم التولي عن أمر الله ورسوله، وطاعة أمر الله ورسوله تقتضي أن يكون مُمْتَثِلَهُا مؤمناً حقاً، " وباختلاف البناء النحوي بين أسلوبي النداء والأمر، فإن الأسلوبين تماثلا في أنهما من أساليب الطلب، فاشتركا في الخاصية الإفهامية وتغايرا في البناء النحوي. فالتوازي في أسلوبي النداء والأمر يؤدي دلالة سياقية معينة، تأتي من تأدية الخطاب وتوجيه المخاطب"[3]، (النداء يؤدي الخطاب لأنه ينبه المخاطب، والأمر يوجه المخاطب للقيام بحاصل مناداته)

والمخطط التالي يبين دور ضممتي النداء والأمر الإفصاحيتين في ربط سياق الآيتين:

1 أبو بكر الجزائري، نداءات الرحمن لأهل الإيمان، ط 03 (2001)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ص 07
2 هاني صبري، مرجع سابق، ص 145
3 نفسه، ص 145

النداء: (يا أيها الذين آمنوا)	الشرط: (إذا لقيتم الذين كفروا)	جوابه: (فلا تولوهم الأدبار)
	الأمر:(أطيعوا الله ورسوله)	النهي: (ولا تولوا عنه)

استنادا لما سبق تتجلى حتمية دراسة السياق القرآني أثناء التعامل مع آيّه، فهو يتسم بالترابط والتشابك من غير انفصال أو انقطاع، وهذا عائد إلى ترابط معاني الآيات وتتابعها بعناية إلهية[1]، وهي ظاهرة تَسِمٌ النص القرآني من بدايته إلى نهايته، وعلى ذلك جوّز علماء القراءات قراءة القرآن وصلا من غير وقف، من أوله إلى آخره إذ هو في محل السياق الواحد المتصل.

[1] المثنى محمود، مرجع سابق، ص 58

المبحث الثاني: الفاصلة القرآنية والسجع:

أ: نظرة تاريخية عامة:

لما كان القرآن الكريم معجز بآخر حرف فيه، وجب أن تكون له مباحث يتمايز بها عن غيره، بحيث تصير له سمة لازمة لا تفارقه، ولربما كانت الفاصلة من أظهر تلك المباحث، التي جار عليها قانون الاختلاف بتأخر البت في أمرها، وإن كان يسري على جميع المفاهيم العلمية قبل استقرار مفاهيمها.

ولقد ارتأيت ضرورة الإشارة إلى ذلك الاختلاف قبل تبيين صلتها بموضوع التوازي.

جاء في اللسان في مادة 'فصل' " فَصَلَ: الفصل بون ما بين الشيئين. والفصل من الجسد: موضع المِفصل، ... الفصل الحاجز بين الشيئين، ... والفصل: القضاء بين الحق والباطل، ... والفاصل صفة من صفات الله عز وجل يفصل القضاء بين الخلق، ... وقول فصل: حق ليس بباطل. وفي التنزيل العزيز: ﴿إنه لقول فصل﴾ ، ... والتفصيل: التبيين، ... والفِصال: الفطام؛ قال الله تعالى: ﴿وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾ الأحقاف 15 وسمي المفصّل مُفصّلا لقصر أعداد سوره من الآي"[1] ولعل مصطلح الفاصلة مأخوذ من قوله تعالى ﴿كتاب فُصِّلتْ آياتُه قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون ﴾[2] فصلت 03

أما اصطلاحا فتعريفها يختلف حسب استعمالاتها ومدلولاتها في العلوم والفنون فقد:

عُرّفت في النحو: الفصل عند البصريين بمنزلة العماد عند الكوفيين، كقوله عز وجل: ﴿إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ فقوله 'هو' فصل وعماد.[3]

وفي العروض: الفصل: كل عروض بنيت على ما لا يكون في الحشو إما صحة وإما إعلال كمفاعلن في الطويل، فإنها فصل لأنها قد لزمها ما لا يلزم الحشو لأن أصلها إنما هو مفاعيلن [4]

1 ابن منظور، مصدر سابق، ج11، ص 512.

2 ينظر، أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، دط (2005)، نهضة مصر القاهرة، ص 64.

3 نفسه ص 524.

4 نفسه، ص 523.

وهي في علامات الترقيم: الفَصْلَة وتسمى أيضا الفاصلة وتستعمل لفصل بعض أجزاء الكلام عن بعض، فيقف القارئ عندها وقفة خفيفة[1].

أما في علوم القرآن –وهو مدار بحثنا– فهي أواخر الآيات في كتاب الله فواصل بمنزلة قوافي الشعر، واحدتها فاصلة، وقوله عز وجل: ﴿ بكتاب فصلناه﴾ له معنيان: أحدهما تفصيل آياته بالفواصل، والمعنى الثاني في فصلناه بيناه. وقوله عز وجل: ﴿آيات مفصلات﴾ بين كل آيتين فصل تمضي هذه وتأتي هذه، بين كل آيتين مهلة[2].

وهي في اصطلاح المُحدَثين: توافق حروف أواخر الآي في حروف الروي، أو الوزن، مما يقتضيه المعنى وتستريح إليه النفوس.[3]

ومعلوم أن الفاصلة القرآنية مدار بحث منذ القدم، فالباقلاني مثلا عرّفها بقوله " الفواصل ... حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني"[4]، والخلاف حول من حاز قصب السبق في تسميتها، متواتر في تصانيف علماء القرآن، فمن قائل أنه الخليل أو تلميذه سيبويه، إلى قائل بأنه الجاحظ، إلى آخر ينسبها لأبي الحسن الأشعري.

وعند تتبعنا لتاريخ المصطلح نلحظ إيغالها في الفكر النقدي العربي، فالصحابة رضوان الله عليهم استعملوها ومشتقاتها فيما يروونه عن رسول الله ﷺ، وفي أحاديثهم، فقد روي عن ابن عمر قوله في معرض نصحه لأهله عن البيعة على بيعة الله ورسوله "وإني لا أعلم أحدا منكم خلعه، ولا بايع في هذا الأمر، إلا كانت الفيصل بيني وبينه"[5] أي القطيعة بيني وبينه، غير أن مفهومها عندهم رضوان الله عليهم لم يخرج عن معناه اللغوي، ثم ما فتئت لفظة 'الفاصلة' إن انتشرت في طبقة الخليل (170هـ) وتلميذه سيبويه

1 عبد العليم إبراهيم، الإملاء والترقيم في اللغة العربية، دط، مكتبة غريب مصر، ص 97.

2 ابن منظور، مصدر سابق ص 524.

3 الحسناوي، مرجع سابق، ص 138.

4 الباقلاني، مصدر، ص 270.

5 إسماعيل البخاري، مصدر سابق، ج 09، ص 57

(180هـ)، يقول الخليل في سياق حديثه عن السجع "سجع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن، فلفظة 'الفواصل' الواردة في النص جمعا 'للفاصلة' تدل على شيوع الأخيرة في الكلام المشابه للسجع والقوافي، وهو يشمل الفواصل القرآنية إن لم يكن يعنيها بذاتها[1]، ويقول تلميذه سيبويه "وجميع مالا يحذف في الكلام، وما يختار فيه ألا يحذف، يحذف في الفواصل والقوافي ... قول الله عز وجل ﴿ والليل إذا يسر﴾"[2] الفجر 03، وهذا دال على وضوح دلالة الفاصلة على أواخر الآيات، في بداية نشأة المصطلح.

ثم أعقبهما الجاحظ بكلام بديع يثبِّتُ به استقرار دلالة المصطلح – حسب ما نسبه السيوطي له في الاتقان – "سمّى الله كتابه اسما مخالفا لما سمى العرب كلامهم على الجملة والتفصيل، سمى جملته قرآنا كما سموا ديوانا، وبعضه سورة كقصيدة، وبعضها آية كالبيت، وآخرها فاصلة كقافية "[3] فهذا الكلام إضافة إلى أنه يشير إلى نفاد بصيرة الجاحظ، فهو حجة دامغة مؤكدة لما سلف ذكره، من ثبوت دلالة الفاصلة على الأواخر، وازداد بعده المصطلح استقرارا ودلالة على معناه، وبعدا عن السجع وضروبه، مع أبي الحسن الأشعري (ت 324هـ) وتلميذه الباقلاني (403هـ)، وعنهما تفرعت أغلب الآراء المبثوثة في الأسفار.

ولعل الشبهات المفتريات على القرآن وإن خَبَتْ جذوتها اليوم، لكنها لم ولن تكف، إذ يُخيّل للمتمعن في القرآن بداية الأمر أنّه مسجوع بامتياز، مما يغري أهل الريبة والزيغ للهرف والافتراء، ابتغاء للتنقيص حينما تتلى الآيات النافية جنس الشعر والسجع عنه، ومنها قوله سبحانه ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ يس 69، فيَجْسُر على المجادلة بعد أن تكوّنت في نفسه شبهة التناقض، والذي يغذي هذه الشبهة التشابه الصوتي بين الفاصلة والسجع والقافية، إذ السجع "تواطؤ من النثر على حرف واحد"[4]، والقافية " آخر كلمة في البيت"[5].

1 ينظر محمد الحسناوي، مرجع سابق، ص 34

2 نفسه ص 35

3 السيوطي، الاتقان، ج 01، ص 178

4 الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح إبراهيم شمس الدين، ط 01 (2003)، دار الكتب العلمية بيروت، ص 296

5 ابن منظور، مصدر سابق، ج 15، ص 195.

وقد نُقل عن دائرة المعارف الإسلامية ما نصّه "والنص القرآني قد ينقل لنا بعض الكلام الموزون كأنه شعر، وقد أُثيرت التساؤلات في العالم الإسلامي حول تحت أي مصطلح دقيق يجب أن نصنف هذه الآي؟ ولم يكن هناك أي تردد في رفض استعمال قافية الشعر المعروف، لأن القرآن ليس شعرا، فهل كان القرآن سجعا ؟"[1]، وهي شبهة قديمة انبرى لها الباقلاني وغيره حتى زالت وبادت، ليفرضَ النظم القرآني بخصائصه المتميزة نمطا لا يُقارب جودةً، اصطُلح عليه " الفاصلة القرآنية " بدل "القرنية في السجع" و"القافية الشعرية".

ورغم اتضاح الرؤى والفوارق في عصرنا، إلى حدّ تكاد معه تختفي نقاط التماس بينها، إلا أن الأمر ظلّ مثار جدل ونقاش حاد، بين القائلين بالسجع في القرآن والرافضين وجوده فيه، أوجدته الاختلافات المذهبية بين الأشاعرة والمعتزلة، وسائر الفرق الكلامية تارة، وشبهات المَلاحِدة والزنادقة، والاضطراب الاصطلاحي الذي مسّ جميع العلوم تقريبا تارة أخرى ، وفيما يلي موجز لآراء الطوائف التي تناولت قضية السجع في القرآن:

الطائفة الأولى:

وهي التي أمسكت عن الخوض في المسألة كالجاحظ الذي تحدّث عن السجع من حيث هو قضية متواترة في العربية، وعبد القاهر الجرجاني الذي تحدث عن السجع عامة دون التعرض للسجع القرآني، وأبي هلال العسكري الذي تحاشى التصريح بالسجع في القرآن أو نفيه عنه في قوله " وكذلك جميع ما في القرآن مما يجرى على التسجيع والازدواج مخالف في تمكين المعنى، وصفاء اللفظ، وتضمّن الطلاوة ... لما يجرى مجراه من كلام الخلق" [2].

1 محمد الحسناوي، مرجع سابق، ص 91

2 العسكري، الصناعتين، ص 260

الطائفة الثانية:

وهي التي نفت السجع من القرآن، ومن أبرز أعلامها: الأشعري، الباقلاني، الرماني، السبكي، ابن خلدون...الخ واحتجوا لذلك:

- الفواصل اصطلاح إلهي من قوله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف 52، أما السجع فاصطلاح بشري من قولهم "سجع الحمام إذا هدل وأطرب" وتقديم تسمية الرب أولى.
- الفواصل بلاغة والأسجاع عيب، لأن الفواصل تابعة للمعاني ونتاج عنها، أما في الأسجاع فالمعاني تابعة لها، ولا يخفى ما في ذلك من ركاكة تستوجب فساد المعنى.
- اشتهر بالسجع في الجاهلية الكهنة والمشعوذون، وقد نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم، في قصة الذين كلموه في دية الجنين " كيف ندي من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، أليس دمه قد يطل فقال صلى الله عليه وسلم: فقال: " أسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ " وفي بعضها: " أسجعاً كسجع الكهان؟ " [1]
- من السجع ما تتفاوت أوزانه وتختلف طرقه وذلك قبح باتفاق، وقد عُلم أن في القرآن مما يدعونه "سجعا" ما هو متقارب الفواصل متداني المقاطع ...[2] ولو كان في القرآن شئ من ذلك لنُسب إليه من القبح ومخالفة أنظمة الفصاحة والبلاغة ما هو منه براء، بل ولاسطاعوا معارضته قبل أن يُدعوا إليها.
- إن التقديم والتأخير في بعض الآيات له أغراض بلاغية ويستحيل أن يكون لمراعاة للسجع فقط، كمثل قوله سبحانه ﴿ آمنا برب هارون وموسى ﴾ طه 70، ومنها إعادة القصة الواحدة بألفاظ متعددة لتأدية معان مختلفة.
- إن القائلين بالسجع يلزمهم إلغاء الإعجاز والقول بالصرفة، وهو ما لا يُسلِّمُ به عاقل، فلو نُسب السجع للقرآن لكان مما يستوجب صرف الهمم عن المعارضة .

1 الباقلاني، مصدر سابق، ص 73.

2 ينظر محمد الحسناوي، مرجع سابق، ص 106.

- إن الذين قالوا بالسجع في القرآن فاتهم الأدب مع كلام الله سبحانه، حيث شبهوا شيئا منه بما أصله من دواب العجم (سجع الحمام، سجع الناقة).
- لو جاز لنا أن نقول سجع معجز لجاز كذلك أن نقول شعر معجز لتشابههما في بنياتها .

الطائفة الثانية:

وهي التي أثارت النقاش حول الفاصلة، وحاولت إثبات السجع في القرآن، وتشمل الأعلام: ابن سنان الخفاجي، أبو يعقوب السكاكي، ابن الأثير، حازم القرطاجني، ابن القيم الجوزية ... الخ، واحتجوا لذلك:

- السجع ظاهرة لغوية متواترة في القرآن الذي نزل موافقا لكلام العرب، غير أنه سجع بليغ لا يمكن الإتيان بمثله أبدا، وكيف لا يكون في القرآن شئ منه وهو مما يُتفاضل به في الكلام.
- الأسجاع ليست عيبا إلا ما كان منها متكلَّفا، وليس في القرآن شئ من هذا لأنه حاز ذروة البلاغة والفصاحة.
- لم ينه النبي صلى الله عليه وسلم إلا عن السجع المشابه لسجع الكهان، لقرب العهد بالجاهلية، وإلا فكيف نفسّر ما أُنشد في حضرته وصحابته من أرجاز مسجوعة استحسن بعضها، ثم إن المحدثين لا يكادون يمرون على حديث "إياكم والسجع في الدعاء" دون أن يقولوا حديث غريب.[1]
- بعض الآيات وقع فيها تقديم وتأخير بغرض السجع، كقوله تعالى﴿آمنا برب هارون وموسى﴾ طه 70 بدل "موسى على هارون" على الرغم من أفضلية موسى على هارون.
- القول بالسجع في القرآن المتواتر في العربية أظهر في التحدي من مصطلح الفاصلة الذي لا أساس عند العرب، ثم أن وظيفتهما واحدة هدفها الاستراحة وإبراز جمالية التعبير.
- إن قياس الباقلاني السجع على الشعر، اعتمادا على التوازي بين الفقرات في كلا الجنسين بقوله " لو التزمت الآيات التماثل لخرج الكلام من باب الأسجاع إلى تفاعيل الشعر" قياس باطل لأن الشعر باب غير السجع، وله ضوابطه وقوانينه التي تنظمه، وما دفعه إلى هذا نفيه للسجع ابتداءً .[2]

1 ينظر، محمد الحسناوي ، ص 117

2 ينظر، نفسه ص 114

إنّ قوة الحجج التي أوردها كل فريق تجعل الباحث في حيّرة من أمره، بيد أن الرأي الذي تطمئن إليه النفس بعد تمحيص ومدارسة آراء العلماء في هذه القضية، هو أن مصطلح "الفاصلة" الذي جاء به القرآن الكريم أجدر بالتداول، فهو كلام الله المقدس الذي يعتاص على التجنيس والمماثلة ويأبى إلا التفرد والعلو، بما أُستودع فيه من أبحاث جعلته فوق الإدراك والإحاطة، خاصة مبحث الفاصلة التي صارت "نهباً لأبحاث السجع والازدواج أو بالأحرى غدت تابعة لها على حين استمرت القافية بابا أو علما مستقلا يغتني عصرًا بعد عصر" [1] مما أوجد صراعات تلقي بظلالها وتفرض نفسها على الباحثين إلى عصرنا هذا.

والجدير بالذكر –هاهنا– أنه صاحب ظهورها مصطلح "رؤوس الآيات أو الآي"،يقول أبو عمرو الداني[2] نقلا عن ابن كثير ما نصه " ما كانوا يعرفون شيئا مما أُحدِثَ في هذه المصاحف إلا هذه النقط الثلاث عند رؤوس الآيات "[3] مما يدل على قدم تسمية المصطلح الذي أُضمِر في غمرة الجدل الدائر حول مصطلح الفاصلة وعلاقتها بالسجع في القرآن، رغم مزامنته لها في الظهور والاصطلاح، وغالبا ما يتناوله علماء القراءات تحت مبحث الوقف والابتداء، والفصل والوصل" في بداية الآيات ونهاياتها.

ب: أركان الفواصل:

بالنظر إلى التقارب الوظيفي الموجود بين الفاصلة والسجع والقافية، نجد أركانها مشتركة كذلك، غير أن المقام هنا يستدعي للاهتمام بأركان الفاصلة لصلتها بموضوعنا وهي:

الوقف والابتداء:

الفواصل مبنية على الوقف غالبا، تماما كقافية الشعر وقرينة السجع، لأن الأصل فيها المساواة والموازاة، يقول الزركشي " إن مبنى الفواصل على الوقف، ولهذا شاع مقابلة المرفوع بالمجرور وبالعكس، وكذا المفتوح والمنصوب غير المنون، ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ مع تقدم قوله ﴿ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ و﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ وكذا ﴿ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ و ﴿ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ وكذا ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ

1 ينظر، محمد الحسناوي، مرجع سابق، ص 126

2 هو عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني، (371 – 444هـ) من علماء القرن 05 هـ، مشهور بالصيرفي.

3 " أبو عمرو الداني، المحكم في نقط المصاحف، تح د/عزة حسن، دار الفكر دمشق، ط 02 (1986)، ص 17

﴾ مع ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾" [1] والغرض من هذا إبراز الجانب الموسيقي، ومراعاة متطلبات الإيقاع، ومقتضيات التلاؤم التناغمي [2].

بل يذهب الدكتور أنيس إبراهيم إلى أبعد من ذلك، فيرى محاضراته الموسومة "وقف الفواصل": أن الوقوف بالسكون على رؤوس الآيات ضرورة تتطلبه القراءة القرآنية، لأنه يحقق الانسجام الموسيقي، ولا يكاد الوقف القرآني يتجه إلى غير الوقف بالسكون إلا في حالات قليلة [3] منها:

– الوقف على النون المنصوبة بالألف: مثل ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ العاديات 01

– الوقف على هاء ضمير المؤنثة الغائبة:نحو ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ الزلزلة 01-02

– الوقف بهاء السكت مع ضمير المتكلم: مثل ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾ الحاقة 25-26

أمّا الفواصل المطلقة فمستثناة من ذلك، إذ انتهاؤها بالحروف التي تستوجب الإطلاق والمد، يمنع تحريكها، كقوله تعالى ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا *هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ الأحزاب 10-11-12

الوزن والقرينة:

نقصد بالوزن – هاهنا – الوزن العروضي حيث يقابل المتحرك بمثله والساكن بمثله، بغض النظر عن نوع الحركة وعن أصالة الحروف وزياداتها التي يهتم بها الوزن الصرفي كقوله تعالى ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ 04-05

أما القرينة: فهي قطعة في الكلام جُعلت مزاوجة ومماثلة لأختها في كلمة أخرى، كما في قوله عز وجل ﴿ نمارق مصفوفة * وزرابي مبثوثة﴾ الغاشية 13-14، " مبثوثة " مماثلة "لمصفوفة" والقرينة في النثر بمنزلة القافية في الشعر

1 الزركشي، مصدر سابق، ج 01، ص 69.
2 أحمد عمر مختار، مرجع سابق، ص 73.
3 نفسه، ص 73

الروي: وهو الحرف الأخير من الفاصلة، وقد يسمى حرف الروي فاصلة، فنقول فاصلة الراء في القمر، والدال في الإخلاص، والسين في سورة الناس ... الخ

ج: مميزات الفاصلة:

أهم ما يميز الفاصلة القرآنية أن ما يعد عيبا في غيرها هو بلاغة لها:

– فالتماثل (السجع) في قوله سبحانه ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ وهذا لا مشاكلة في بلاغته .

أما عدم التماثل (التقارب) الذي قالوا أنّه أقل بلاغة فورد في قوله عز اسمه ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ومع ذلك حاز من البلاغة أرفعها، ولذا يستحيل تبديل أو تغيير لفظه، أما السجع فأبلغه ما كان متماثلا متوازيا، ومع ذلك يبقى في درجة أقل في البلاغة لأنه يقبل التبديل والتغيير.

– أما عن عيوب القافية فأهمها:

الإيطاء: وهو تكرير القافية بمعنى واحد ومنه قولهم: [1]

أأسلمتني يا جعفر بن أبي الفضل ومن لي إذا أسلمتني يا أبا الفضل

فقل لأبي العباس إن كنت مذنبا فأنت أحق الناس بالأخذ بالفضل

ولا تجحدوني ودّ عشرين حجة وما تفسدوا ما كان منكم من الفضل

فالأول كُنية والثاني من العفو والثالث من الإعطاء والتفضل.

والتضمين: وهو أن يكون البيت معلّقا بالبيت الثاني، لا يتم معناه إلا به، وهو كقول النابغة: [2]

وهم وردوا الجِفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إني

شهدت لهم مواطن صادقات شهدت لهم بصدق الود مني

وقد وردا (الإيطاء والتضمين) في الفواصل القرآنية فما زادها ذلك إلا جمالا وبلاغة، فمما يمكن تسميته إيطاءً – تجوزا– قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا **يَعْلَمُونَ** * وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ

1 أحمد بن يحي ثعلب، قواعد الشعر، تح رمضان عبد التواب، ط 02 (1995)، مكتبة الخانجي القاهرة، ص 66.

2 ابن عبد ربه، العقد الفريد، دتح، ج 06، دار الكتب العلمية بيروت، ط 01 (1983)، ص 223.

سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا **يَعْلَمُونَ** * وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا **يَعْلَمُونَ** ﴾ 101-103.

" **يعلمون** " الأولى وردت في سياق التقرير، وفيها تسجيل عليهم بأنهم عالمون بأن القرآن كتاب الله، إذ هو مقرر لديهم في التوراة وفيها بشارة ببعثة الرسول من ولد إسماعيل، أمّا إعادة ربنا " **يعلمون**" ثانية فهي ذمّ، لأنهم باعوا أنفسهم بما تسبب لها في الخسار والبوار، أما " **يعلمون** " الثالثة فللدلالة على خيرية مثوبة الله، التي لو كانوا يعلمونها ما باعوها بالسحر، وفائدة هذا التكرير التسجيل عليهم بأنهم لا يعلمون ما هو النفع الحق .[1] فالإيطاء هنا كما ترى ما زاد النص القرآني إلا جمالا وبلاغة.

ومما يمكن وصفه تضمينا – تجوزا – قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ الصافات 137- 138، وقّـعَ سبحانه وقت مرور قريش بديار لوط، أثناء رحلتهم الصيفية للشام، أي أنكم تمرون على منازلهم في الصباح تارة وفي الليل أخرى بحسب تقدير السير في أول النهار وآخره[2]، وختمها سبحانه بقوله " أفلا تعقلون " للعودة للمغزى المراد من إيراد القصة، وأن سبب هلاك أولئك القوم، تكذيبهم لنبي الله لوطا عليه السلام، ليكون ذلك أبلغ في اليقظة والاعتبار.

[1] ينظر، ابن عاشور، مصدر سابق، ج 01، ص 626 - 650.

[2] ينظر، ابن عاشور، نفسه، ج 23، ص 171.

د :أنواع الفواصل بحسب الأبنية:

تُقسّم الفاصلة بحسب أبنيتها إلى سبعة أقسام، تتداخل مع بعضها لتشكّل الفارق بينها وبين مثُلاتها في الشعر والنثر وهي:

- **حسب حروف الروي:**

- **الفاصلة المتماثلة:** وتسمى المتجانسة كذلك وهي التي تماثلت أحرف رويها، وهذا النوع شائع في السور المكية ذوات الفواصل الشديدة، مثاله قوله ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ الطور 01-03.

- **الفاصلة المتقاربة:** أو ذات المناسبة غير التامة، وهي التي تقاربت أحرف رويها، ويشيع ورودها في السور المدنية، ومنها قوله سبحانه: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ الحج 31 – 32.

- **الفاصلة المنفردة:** وهي التي لم تتماثل أحرفها ولم تتقارب، وهي نادرة منها قوله في الضحى ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ الضحى 10 – 11، بعد فاصلتي "الراء".

- **حسب الوزن:**

أقسامها على حسب الوزن هي أنواع السجع التي ذُكرت في الفصل الأول مع أمثلتها، (المطرف، المتوازي، المتوازن، المرصع) فلا معنى لإعادتها هنا، لذلك سأكتفي بتوضيح " المتماثل " الذي غاب ذكره آنفا.

- **المتماثل:** وهو ما تساوت فيه الفقرتان في الوزن دون التقفية مع مقابلة ألفاظ الأولى للثانية ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الصافات 117 – 118.

(آتيناهما = هديناهما) (الكتاب = الصراط) (المستقيم = المستبين)

- **حسب طول الفقرة:**

يقرر ابن القيم في 'الفوائد' أن الفاصلة القرآنية بالنسبة لطول الفقرة وقصرها أنواع ثلاثة، قصير موجز، ومتوسط معجز، وطويل مبرز للمعنى مفصح[1] .

فالأول أقصر فقراته ما تكوّن من لفظين كقوله تعالى ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾، وأطولها ما تكوّن من إحدى عشر لفظة، أما المتوسط فما بين هذين كقوله تعالى ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ النجم 01-04، أما الأخير فأقصر فقراته ما يكون إحدى عشرة لفظة، وأطولها غير مضبوط، إذ كلما طالت الفقر زاد بيانها وإفصاحها، ومنه قول ربنا ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا، وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الأنفال 43 والملاحظ في هذا النوع احتوائه على محطات استراحية، تمثّل فواصل فرعية عن الأصلية، تيسيرا لتتابع الآيات وسيرورة الإيقاع، "لأنّ الأذن الموسيقية يعيها أن تظل مرهفة حتى يمر عليها هذا الخيط المديد من الكلمات، ولا تطرب لتلقي قافية يختم بها كلام طويل "[2] والنص القرآني يراعى كلّ هذا في لمسات بيانية فريدة، تتيح للمرتل التقاط أنفاسه، وللمعنى فصاحته، وللإيقاع استمراريته.

- **حسب طول القرينة:**

- المراد هاهنا ليس طول الفقرات بل طول قرائنها (ألفاظها)، ويشترط فيها التساوي في عدد الكلمات مع جواز اختلاف القرائن في الطول والقصر بين الفقرتان، ودون مراعاة لزيادات الحروف وهي كقوله سبحانه ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴾ الواقعة 28.

وقوله كذلك ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ الفرقان 11- 12.

[1] ينظر ابن القيم الجوزية، دتح، الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن، دط (1987)، دار ومكتبة الهلال، ص 309.

[2] محمد الحسناوي، مرجع سابق، ص 152

- **حسب مقدارها من الآية:**

تتراوح بين: آية كاملة ويشيع هذا في فواتح السور كقوله جل شأنه ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ (في رواية حفص)، وما هو بعض آية، – سميت بهذا لعدم تمام معناها –، حيث تكون قرينة الفاصلة فيها متعلقة بالآية لا تنفك عنها، كقوله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى*عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴾ 13-14 ف' أخرى' و'المنتهى' فاصلتان مرتبطتان بآيتهما ولا معنى لهما خارج سياقهما.

فاصلة تعقيب والتوكيد والتلخيص، وهي فواصل تصرّف فيها القرآن " كأنها رجع الصدى أو إجابة الداعي إذا دعا "[1] ومنها قوله جل وعلا ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾الأحزاب 25. فقوله سبحانه " وكان الله قويا عزيزا " تذييل وتوكيد لما سبق سرده في الآية.

- **الفاصلة الداخلية:**

وهي مرتكزات ومحطات نفسية في الآية، يُوقف عندها قبل الوصول للقافية الأصلية، ومثيلها في الشعر ما اصطلحوا عليه " التوأم أو التشريع " وهو أن يبني الشاعر البيت أو الناثر النثر على قافيتين إذا اقتصر على إحداهما كان البيت له وزن، وإن كمّله على القافية الأخرى كان له وزن آخر، وتكون القافيتان متماثلتين، وتكونان مختلفتين "[2]، كقول الحريري:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الـردى، وقرارة الأكدار[3]

وهذا النوع من الفواصل كثير في كتاب الله، يجسّده الوقف بصورة جلية، مثاله ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ المائدة 74 فالآية تشتمل على خمسة

1 نفسه، ص 156.

2 ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح حنفي محمد شرف، دط، لجنة إحياء التراث الإمارات العربية المتحدة، ص 522.

3 أبو محمد الحريري، مقامات الحريري، دتح، دط (1873)، مطبعة المعارف بيروت، ص 223.

مرتكزات (فواصل داخلية)، اقتضتها ضرورة التواصل المتبادل بين أطراف الخطاب (مرسل ومستقبل)، وينطبق عليها التجانس والتقارب الواقع بين الفواصل الأصلية.

- **الفاصلة اللازمة:**

نجدها حينما يلتزم النص القرآني فاصلة بعينها يخالف بها الفواصل المتفقة من قبل، تكون بمثابة اللازمة في الأناشيد الشعرية، وقد تكون بعض آية أو آية بأسرها، فمما ورد في القرآن على هذه الشاكلة آية ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الرحمن 13، التي ترددت إحدى وثلاثين مرة في السورة، لأغراض بلاغية شتى، ومثلها ما جاء في الشعراء ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيم ﴾، وفي المرسلات ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾.

هـ: القيمة الصوتية للفاصلة القرآنية:

يَقودنا الحديث عن هذا المبحث إلى الإيقاع القرآني الذي سنُرْجِـأُ القول فيه لآجلٍ، وفي الوقت ذاته يحيلنا إلى علاقتها بمبحث السجع، إذ الجامع بينهما الجرس الموسيقي المريح في نهايتهما، بيد أن الفاصلة سلكت لتحقيق ذلك مسلكا حافظت فيه على بلاغتها الراقية، من حيث الاهتمام بالمعنى أولا ثم التلاؤم الإيقاعي ثانيا، وأنجع وسيلة تحقق ذلك هي الخروج عن مقتضى الظاهر، يقول الزركشي: " واعلم أن إيقاع المناسبة في مقاطع الفواصل حيث تطّرد، متأكدٌ جدا، ومؤثِّر في اعتدال نسق الكلام وحسن موقعه من النفس تأثيرا عظيما "[1]، مراعية ما يأتي:

– بناء الفواصل على الوقف لإحداث الإيقاع، ما يفسّر الجمع بين الفواصل المختلفة الإعراب، لاتفاق شكلها عند الوقف[2]، ومن ذلك "طينٌ لازبٌ" بعد "عذابٍ واصبٍ" و"شهاب ثاقب" الصافات 09-10 على التوالي.

– تعيين أصوات معينة لحروف الروي، واختتامها بحروف المد والنون لتحقيق الترنم والتطريب، وقد نُقل عن سيبويه أنه أرجع سبب الترجيع عند العرب بقوله "إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والواو والياء ... لأنهم

[1] الزركشي، مصدر سابق، ص 60.

[2] أحمد عمر مختار، مرجع سابق، ص 73.

أرادوا مدّ الصوت" [1]، يضاف إليها حرف الميم، وقد ثبُت بالإحصاء انتشار هذه الحروف ومثيلاتها في التعبير القرآني، فالبقرة على سبيل التمثيل لا الحصر، خَتَمَتْ النون فيها مائة واثنتان وتسعون آية، والميم أربعة وخمسون آية، من أصل المجموع العام[2] (مائتان وست وثمانون آية).

إنّ مراعاة ضرورتي المعنى والإيقاع أدت إلى العدول عن تراكيب الأنماط المعتادة، استعانة بأدوات لغوية يتم من خلالها رسم هندسة المتواليات المتوازية المتقابلة، للمحافظة على إيقاعها العام بواسطة:

– التقديم والتأخير: مثل قول ربنا ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾ الليل 13، بدل المعهود (الأولى والآخرة) جريا على فاصلة الليل، وفي ذلك إشارة جليلة إلى أن " أمور الجزاء في الأخرى تجري على ما رتبه الله وأعلم به عباده، وأن نظام أمور الدنيا وترتب مسبباته على أسبابه أمر قد وضعه الله تعالى وأمر بالحفاظ عليه ... فمن فرط في شيء من ذلك فقد استحق ما تسبب فيه "[3] .

– زيادة حرف للفاصلة: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾ الأحزاب 67، عوض "الرسول" مراعاة للفاصلة، " زيدت هذه الألف في النطق للرعاية على الفواصل في الوقوف، لأن الفواصل مثل الأسجاع تعتبر موقوفا عليها لأن المتكلم أرادها كذلك. فهذه السورة بُنيت على فاصلة الألف مثل القصائد المقصورة، كما زيدت الألف في قوله تعالى وأطعنا الرسولا "[4]

– حذف حرف لأجلها: ﴿ والليل إذا يسر ﴾ الليل 01، أصلها "يسري" وحذف الياء لموافقة الفواصل اللاحقة.

– صرف الممنوع من الصرف: ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ الإنسان 15، "قوارير" ممنوع من الصرف لأنه جمع تكسير على وزن 'مفاعيل'، والممنوع من الصرف لا ينون، "التنوين بدل من ألف الإطلاق، لأنه فاصلة"[5] وصُرِفت هنا لملائَمَة الفواصل السابقة واللاحقة.

---

[1] أحمد عمر مختار ، ص 74.

[2] ينظر، نفسه، ص 74.

[3] ينظر، ابن عاشور، مصدر سابق، ج 30، ص 389.

[4] نفسه ج 21، ص 282.

[5] الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دتح، ج 04، ط 03 (1986)، دار الكتاب العربي، ص 671.

- حذف الضمير: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى * أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾الضحى 02- 07، والأصل "قلاك، آواك، هداك، أغناك" لكنه سبحانه حذف الكاف وترك الأفعال على إطلاقها، مراعاة للفاصلة ومواساة لمن انتابته هذه الحال.

- إفراد ما أصله الجمع أو العكس: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴾ القمر 54، محافظة على فاصلة القمر المتحركة مع ما قبلها في غالبها "مُدَّكِرٍ، الزبر، كبير، مستطر، نهر، مقتدر"، أما العكس فقول ربنا ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ إبراهيم 31، "فالمراد "ولا خلة" لكنه جُمع لأجل مناسبة رؤوس الآي"[1].

- العدول عن صيغة الماضي إلى الاستقبال: كقوله سبحانه ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ البقرة87، عدل سبحانه عن "قتلتم" الموافقة "كذبتم" إلى صيغة "تقتلون" المختومة بها أغلب آيات السورة.

- الجمع بين المجرورات: في مثل قوله سبحانه ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ الإسراء 69، توالت في الآية الكريمة ثلاث أحرف جر ومجروراتها، (اللام، الباء، على) من غير فاصل بينها، وأصلها (لا تجدوا لكم به تبيعا علينا) وجمع بين تلك المجرورات جميعا لأن فاصلة السورة منصوبة منونة[2].

يُظهِر التمازج الإيقاعي والبلاغي في الفاصلة القرآنية، مدى ترابط النص القرآني، واستحالة تغيير مفرداته حتى بالمرادفات، لأن البلاغة "لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أداء الأسلوب"[3]، ففي سورة الضحى تسير الفواصل من 'والضحى إلى فأغنى' على حرف الألف المقصورة ثم حرف الراء مرتين، وتأتي الفاصلة الأخيرة على نفس النظام النحوي لسابقتيها، لكنها متفردة في رويها 'فحدث' وكان المعوّل على 'فخبّر' "ليكون ذلك حديثا لا ينساه، ويعيده مرة بعد أخرى"[4] ، "وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما

[1] أحمد عمر مختار، مرجع سابق، ص76.

[2] أنسام خضير خليل، الجرس والإيقاع في الفواصل القرآنية، مجلة كلية الآداب بغداد، العدد 98، ص 234.

[3] هانم محمد حجازي، مرجع سابق، ص 116

[4] فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دتح، ج 31، ط 03 (1999)، دار إحياء التراث العربي بيروت، ص 201.

تجلوها الفواصل القرآنية بدلالتها المعنوية المرهفة ونسقها الفريد في إيقاعها الباهر، وبين ما تقدمه الصنعة البديعية من زخرف لفظي يُكرِه الكلماتِ على أن تجئ في غير مواضعها"[1]، وهنا نعود لنقرر أن القرآن الكريم يندّ عن التصنيف ولا يرضى إلا بتسمية " كلام الله المعجز " أو ما في معناها.

و: التوازي في الفواصل القرآنية:

لعلك رحمك الله انتبهت إلى التشابه الكبير بين المسميات العروضية ومصطلحات الفاصلة، فلا عجب إذنٍ أن تجد الاحتراب على أشده بين من يثبتون السجع ومن ينفونه عن القرآن، وأن جُلة العلماء "كابن القيم الجوزية" هم من وقّعوه في كتاب الله، وأن رافضيه استندوا إلى قواعد العروض لتفنيد ما قاله المثبتون، لما صعب عليهم تفصيل القول فيها، وسلّموا لحكم الذوق والقبول في النفس، فصارت الفاصلة القرآنية –كما ذكرنا– مبحثا لا ينفصل عن أبحاث القافية والسجع، ووجه الإعجاز فيها خاصة والقرآن عامة، بناؤها على المشابهة والمباينة، فالمشابهة فيما اعتادوا عليه من فنون القول، وقواعدها النحوية والصرفية والعروضية، والمباينة باستقراره في قمة البلاغة والجودة، بحيث لا يُرقى إلى مقاربته فضلا عن اللحاق به.

والفواصل القرآنية جزء لا يتجزأ من القرآن، وإنها لتشكّل ميدانا خصبا للتشابه والتقابل والتقارب، فلا تكادُ تقع على فاصلة إلا ولها تواز يجمعها بأخواتها، وقد أثبت الرب سبحانه صفة التشابه لكلامه فقال عز من قائل ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ الزمر 23، كما أن الفواصل الداخلية واللازمة على غرار الفواصل الأصلية تُسهم بوضوح في تحديد نسق التوازي في النص القرآني. فالداخلية بمشابهة الفواصل الأصلية في التقفية، خاصة تلك التي تغلب عليا قافية 'الواو والنون' كقول ربنا ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام 32–33 إضافة إلى (تعقلون، يجحدون) نجد

[1] عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني، ومسائل ابن الأزرق، ط 03، دار المعارف بيروت، ص 278

(يتقون، يقولون) بمثابة فاصلتين فرعيتين متقاربتين، تقومان مقام المرتكزات والمحطات النفسية معنى وموسيقى[1]، قبل الوصول للفاصلتين الأصليتين.

أما الفواصل اللازمة، فيجلي سيد قطب دورها في ضبط مفهوم التوازي، حين علّق على إعادة قوله سبحانه ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ. لَهَا ما كَسَبَتْ وَلَكُمْ ما كَسَبْتُمْ. وَلا تُسْئَلُونَ عَمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بقوله "وحين يصل السياق إلى هذه القمة في الإفحام، وإلى هذا الفصل في القضية، وإلى بيان ما بين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وبين اليهود المعاصرين من مفارقة تامة في كل اتجاه.. عندئذ يعيد الفاصلة التي ختم بها الحديث من قبل عن إبراهيم وذريته المسلمين ... وفيها فصل الخطاب، ونهاية الجدل، والكلمة الأخيرة في تلك الدعاوى الطويلة العريضة "[2]، وهذا إشارة بيّنة للأثر الذي يُحدِثه هذا النوع في الترابط النصي توكيدا لما سلف تقريره.

وقد تُسهم –الفواصل اللازمة– في صناعة التوازي بالتعقيب أو التلخيص، كما في سورة الشعراء، التي أعيدت فيها آية ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ثمان مرات عقب قصص تكذيب الأنبياء الواردين في السورة، وعقب آيات التثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم مرة، بلفظ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ الشعراء 217، كعادة القرآن في التلوين أو التنويع مع التناظر[3] في توزيع القصة، واقتصارا على موقع العبرة ليخالف أسلوب قصصه الذي قصد منه الموعظة أساليب القصاصين الذين يقصدون الخبر بكل ما حدث[4]، فيصير البناء النحوي للفواصل على الوقف والابتداء، له إيقاع خاص يحقق الترنم والتطريب، بمخالفة القوالب المعهودة والنظوم الجاهزة المتفق عليها، وهي لذلك ليست حيلة يُلجأُ إليها للخلاص كقافية الشعر وقرينة النثر، بل ضرورة يقتضيها السياق.إن البحث فيها يصدق فيه قول ابن الرومي:

يسهل القولُ أنّها أجملُ الأشـ   ـياءِ طُـرّاً ويصعبُ التحديدُ

---

1 الحسناوي، مرجع سابق، ص 159

2 سيد قطب، الظلال، ج 01، ط 17 (1991) دار الشروق – بيروت– القاهرة ص 119.

3 الحسناوي، مرجع سابق ص 162

4 ابن عاشور، مصدر سابق، ج 09، ص 116.

المبحث الثالث: الإيقاع في القرآن الكريم:

إن للإيقاع وقعا مخصوصا في النفس، لا يعرفه إلا مرهف النفس والحس، وللتوازي أثر بارز في إحداث ذاك الوقع، وقد أسلفنا القول بأن الأنظمة النحوية في نسق التوازي، تصطحب معها تكرارات وإيقاعات صوتية أو معجمية ودلالية، وأشرنا إلى أن العرب أمة غنائية منذ القدم، تتغنى في أفراحها وأتراحها بما يناسب ذلك، وقد كانت تُسمِّي الأعشى 'صناجة العرب' لجودة شعره[1]، ولعل مردّ ذلك إلى أسباب خاصة لم تتكرر في غير البيئة العربية، أهمها: الغناء المفرد وبناء اللغة على الأوزان [2]، ويقصد بالغناء المفرد، القصائد التي ينفرد الشاعر بإنشادها، كعادة شعراء العرب في سرد الأحداث ووصف الأشياء، وهي قصائد موزونة مقفاة، لأنّ السامعين يحتاجون إلى الشعور بمواضع الوقوف والترديد، على عكس الأغاني الجماعية التي تُحفظ فواصلها ومواضع النبر والترديد في كلماتها [3]، أمّا بناء اللغة على الأوزان، فملحوظ في الموازين الصرفية والعَروضية (فعل)، المُفردة بالتصنيف في كتب اللغة والعَروض.

وحقيق بمثل تلك الأسباب أن تصيّر العربية إلى لغة شاعرة، غنية بعناصر الإيقاع والتطريب، ولعل هذا ما دفع بالجاحظ إلى القول بانفراد العربية بعلم العَروض [4] الموسيقي، من دون سائر أخواتها السامية.

والنفس البشرية ميالة بفطرتها، لذاك الإحساس الجميل الذي يخلّفه الإيقاع فيها، خاصة إن كانت البنى الكلامية مقفاة متوازية، ولقد عُلم أن الخليل استنبط قواعد علم العروض، من الإيقاعات التي يصدرها أهل الحِرف أثناء مزاولة أعمالهم، من أجل ذلك كان الكلام المنظوم المتناغم، أيسر في الحفظ والعلوق بالذاكرة من غيره، اتكالا على ما يثير فينا من اهتمام وإعجاب.

ومعلوم أن القرآن الكريم، نزل بلغةِ أمة أمية ثقافتها المسموعة أكثر من المكتوبة، وأنّ الأذن هي الوسيلة الطبيعية لكل ثقافة لغوية، بل هي خير وسيلة لإتقان اللغة وإجادتها، فالسمع كما يرى ابن خلدون

[1] ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج 01، دط (1996)، دار الحديث القاهرة، ص 251.
[2] ينظر، محمود عباس العقاد، اللغة الشاعرة، دط، دار نهضة مصر ، ص 114
3 ينظر، نفسه، ص 115.
4 ينظر، نفسه، ص 50.

أبو الملكات اللسانية [1]، غير أن الله سبحانه أودع كتابه ما يتناسب مع عالمية الرسالة التي يتضمنها، فراعى الحسن الإجمالي في ألسنة البشر، لا القوالب المستَحْسَنَة عند قوم دون آخرين، فكان امتداد الصوت، وانقطاع النفس عند تمام المعاني، من أبرز وجوه الحسن في الترتيل، بما لا سابق له في المتعارف عليه.

فإن سألتْ: من أين يتأتى الإيقاع القرآني؟ وما الفارق بينه وبين معهود الإيقاع؟ أُجِبْتَ: إنه إيقاع جماعي، تسهم فيه الحروف وصفاتها، والكلمة وأنواعها (فعل، اسم، حرف)، والآية وموضوعها، والتراكيب وسياقاتها، فهو إيقاع مستمد من النص في تكويناته الصوتية واللفظية، " لأنه ينبعث من تآلف الحروف في الكلمات، وتناسق الكلمات في الجمل؛ ومردّه إلى الحسّ الداخلي والإدراك الموسيقي، الذي يَفْرُقُ بين إيقاع موسيقي متناسق، وإيقاع مضطرب "[2]، فالمتناسق يبرز بتوافر التآلف والتناسق في الحروف والكلمات، أما المضطرب فيظهر حينما تحاول العبث بالنص القرآني زيادة أو نقصانا أو تحويرا، في أصغر جزئياته (الشكل أو الحروف)، ويصنعه بعد ذلك "التوازي والتكرار والنبرة والصوت وحروف المدّ وتزاوج الحروف"[3]، لخدمة الأغراض والمعاني التي تحملها الألفاظ، ومن ثَـمَّ نشأ التصوير القرآني الذي هو "تصوير باللون، وتصوير بالحركة، وتصوير بالتخييل؛ كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل، وكثيرًا ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق، في إبراز صورة من الصور، تتملاها العين والأذن، والحس والخيال، والفكر والوجدان"[4]

فالتناسق في النص القرآني مصنّف في أعلى درجات البلاغة، لتعانق معانيه بإيقاعاتها الموسيقية، الناتجة بصورة أخصّ من تماثل وتقارب أو اختلاف الفواصل، التي تحتوي على دلالتين هامتين:

- دلالة الصوت: المتمثلة في الإيقاع والرنين الصوتي للألفاظ.
- دلالة المعنى: المتمثلة في تمام المعاني في الفواصل، ومناسبتها لما قبلها وبعدها.

[1] ينظر، منير سلطان، الفصل والوصل في القرآن الكريم، ط 02 ، منشأة المعارف الإسكندرية، ص 212.
[2] سيد قطب، التصوير الفني، ط 17، دار الشروق، ص 104
[3] والي دادة عبد الحكيم، مرجع سابق، ص 93.
[4] سيد قطب، نفسه، ص 37.

وللبرهنة على ما تقدّم، نسوق المثال التالي قال ربنا ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ البقرة 214

يخبر عزّ وجلّ في الآية أعلاه، عن حالة نفسية تنتاب أهل الإيمان، حينما يستشري الباطل ويُظنُّ أنّ أهله أنهم غالبون لا محالة، فيسومون أهل الحق ألوانا من العذاب تذوب من هولها الجبال، ويُغلّقون دونهم الأبواب حتى يرتدوا عن دينهم، فينادي أهل الإيمان بعد أن ضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت: متى نصر الله ؟ فيجئ الجواب مؤكّداً " ألا إن نصر الله قريب " لكنه يحتاج لتحقّقِ شروطه أولاً، إنه مُعدّ " للذين يصمدون للزلزلة ... هذا هو الطريق: إيمان وجهاد.. ومحنة وابتلاء. وصبر وثبات.. وتوجه إلى الله وحده. ثم يجيء النصر ثم يجيء النعيم "[1]، وتلك سنة الله في إدارة معركة الحق والباطل.

تأمل رعاك الله قوة الأسلوب وشدة إيقاعاته التي تؤزّ النفوس أزاً، بداية بالاستفتاح بالاستفهام التقريري، وحرف الجزم النافي 'لما '، والفعل 'زلزلوا'، وأخيرا التأكيد بحرف التحضيض ' ألا ' والتوكيد ' بإنّ ' ومستتبعاتها، فضلا عن النبرة العالية في نهاية الآية الدالة على وجوب تحقق الموعود، وعن قوة الحروف المجهورة والشديدة الغالبة في ألفاظ الآية، والرعب الذي يحدثه الجرس المدوي لفعل الزلزلة في النفوس، نتيجة بنائه على إعادة مقطع "زل" مرتين.

فالآيات القرآنية " تتضافر ألفاظها في نغم هادئ إن كانت الآية في تبشير، أو داعية إلى التأمل، أو التفكير إن كانت في عظة، وتتلاءم نغماتها قوية إذا كانت في إنذار، أو في وصف عذاب "[2]، إقرأ إن شئتَ قوله سبحانه ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ آل عمران 190، إنها دعوة صريحة للتأمل والتفكر في أرجاء الكون الفسيح، السماء مرفوعة من غير أعمدة تشدّها، الشمس والقمر والنجوم والسحب ...الخ، ظواهر تختلجها في مواقيت محددة، أما الأرض فمبسوطة ميسور فيها السير، ومذللة فيها أسباب العيش... الخ، تعاقب الليل والنهار وانسلاخ أحدهما من الآخر... الخ، ألا يدل ذلك على أن لمدبّره قدرة تفوق كل تصور ؟ بعد ذلك عُدْ للكتاب المسطور الذي انطلقت منه،

[1] سيد قطب، الظلال، ج 01، ص 219.

[2] محمد أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، دط، دار الفكر دمشق، ص 211.

واستمع إليه وهو يترجم إحساسك في نغم هادئ وديع، بما لا يترك لديك أدنى شكّ في صدق ما أُخبرت به عن ربك، ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران 191.

والأعجب من ذاك أن التناسق القرآني، ينطلق من العناوين العريضة (أسماء السور) وهي بمثابة مُخْـتَـزِلات، ليَصِلَها بتفاصيلها، فاسم السورة يحيلك حتما إلى موضوعها، فسورة براءة (سورة التوبة) تحذّرك من ارتكاب ما يستوجب براءة الله ورسوله، والأنبياء تُهيأ لك قصصها المثل العُليا في سيرك إلى الله سبحانه، والقارعة أحداثها تقرع الأذان والقلوب ... الخ، " إن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها، لأنّ اسم كل شيء تُظهِر المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانَـه الدالّ إجمالا على تفصيل ما فيه " [1]

فإذا كان التناسق القرآني يجمع – كما يبدو – دلالات المتباعدات، فحريٌّ به الجمع بين دلالات المتلازمات (الفواصل وآياتها)، وقد ذكر العلماء أوجه العلاقة بين الآيات وفواصلها، تنحصر في أربعة ظواهر عروضية إيقاعية، لها أثر عظيم تشكيل الإيقاع القرآني وهي:

التمكين:

وهو أن يمهد الناثر لسجعه فقرة، أو الناظم لقافية بيته تمهيدًا تأتي به القافية ممكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، غير نافرة ولا قلقة، ولا مستدعاة بما ليس له تعلق بلفظ البيت ومعناه، بحيث إن منشد البيت، إذا سكت دون القافية، كملها السامع بطباعه بدلالة من اللفظ عليها، وأكثر فواصل القرآن على هذه الصورة[2] ، ومنه قول المتنبي: .

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجداننا كل شيء بعدكم عدم

فالشاعر مهّد لقافية بيته (بعدكم عدم) بما يناسبها، فجعل وجدان كل شئ بعد فراق الأحبة كالعدم، ولو أردت التصرف في البيت بحذف قافيته، لاختل المعنى واستوجب ما يقوم مقامها، وليس أنسب لها هاهنا مما أورده الشاعر، لتمكّنها من سياقها، ودلالة سابقها عليها.

[1] البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دتح،ج22، دط، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، ص 18.
[2] ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، تح عصام شقيو، ج 02، دط (2004)، دار الهلال بيروت، ص 446.

ومنه في التنزيل قول ربنا ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ الأنعام 103 يتحدث الحق سبحانه عن ذاته العلية التي لا تحيطها المجسّمات، وعن سعة علمه وقدرته سبحانه على جميع مخلوقاته، وختمها سبحانه باللطيف دلالة على تنزيهه عن إحاطة العقول بماهيته، أو إحاطة الحواس بذاته وصفاته، وبالخبير لدلالة على علمه بالأمور التي شأنها أن يُخْبِر عنها علما موافقا للواقع [1]. فالتمكين في الآية تحدثُه موافقة الختم للابتداء بما سُبق من تمهيد يدل عليه.

التوشيح:

هو أن يكون في أول البيت "معنى إذا عُلِمَ عُلِمت منه قافية البيت، بشرط أن يكون المعنى المتقدم بلفظه من جنس معنى القافية بلفظه، أو من لوازم لفظه، وسمي توشيحاً تشبيها له بالوشاح الذي يوضع على العاتق والكشح، لكون معنى أول الكلام يدل على لفظ آخره"، [2] ومنه قول ربنا ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران 33، فقوله " اصطفى " يدل على اجتباء المذكورين قبل فاصلة العالمين، للموافقة في الجنس. فأول الكلام دال على آخر كما ترى.

التصدير:

أو ما يسميه الأقدمون " ردّ الأعجاز على الصدور " وهو ما وافق آخر كلمة من البيت بعض كلماته، في أي موضع كانت [3]، وهو على ثلاثة أنواع:

الأول: ما وافق آخر كلمة في الفاصلة آخر كلمة في صدره، كقول ربنا ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ آل عمران 166.

الثاني: ما وافق آخر الفاصلة أول كلمة الصدر ﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ آل عمران 08.

الثالث: ما وافق آخر كلمة من البيت بعض كلماته في أي موضع كان ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الأنعام 10.

---

[1] ينظر، ابن عاشور، مصدر سابق، ج 07، ص 417.

[2] ابن أبي الأصبع، مصدر سابق، ص 228.

[3] نفسه، ص 116

الإيغال:

وهو أن يوغل المتكلم في الفكر حتى يستخرج سجعة أو قافية تفيد معنى زائداً على معنى الكلام، وأصله الإيغال في السير وهو السرعة [1]، ومنه قول ربنا ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ المائدة 50، فقوله سبحانه (لقوم يوقنون) إيغال احتاجه الكلام ليناسب أول الآية، فلما أتى بها أفاد مجيئها معنى زائدا [2]، لكنه معنى تقتضيه دلالة الآية، فلو كانوا يوقنون ما اختاروا حكم الجاهلية وتركوا حكم الله العالم بما يُصلح النفوس.

وهي كلها ظواهر تُسهِم في تشكيل الإيقاع القرآني، ومخالفة أوزانه لما هو مألوف معتاد.

قوانين الإيقاع في التركيب القرآني:

يعدّ القرآن الكريم أنموذجا فريداً في تشكيلته الإيقاعية، بما ضمّنه الله سبحانه فيه من إيقاعات تناسب رسالته الخالدة، وقد أشار العلماء منذ القديم إلى اختلاف تلك الإيقاعات بين مضامين آياته، ولذلك ترى أن أوّل ما يفقده النص القرآني المترجم، هو الوقع الحسن في النفوس، المستمدّ من الإيقاع الحاصل بتآلف الحروف والكلمات[3].

على أن هذا الإيقاع الموسيقي الناشئ من تخير الألفاظ وانتظامها في نسق خاص، لم يحظ إلا بيسير اهتمام لا يتجاوز الإيقاع الظاهري، ولم يرق إلى إدراك التعدد في الأساليب الموسيقية، وتناسق ذلك كله مع الجو الذي تطلق فيه هذه الموسيقى، ووظيفتها التي تؤديها في كل سياق، على الرغم من وضوح الظاهرة وعمقها في البناء الفني القرآني، مما يوحي بوجود أساليب موسيقية أخرى يمكن استنباطها من التنزيل العزيز[4]، وما شعر التفعيلة بأساليبه المستحدثة إلا واحدا من تلك الأساليب، التي تحاول كسر رتابة الإيقاعات الخليلية.

1 ابن أبي الأصبع، مصدر سابق، ص 232.

2 نفسه ص 240.

3 محمد أبو زهرة، القرآن، مرجع سابق، ص 211.

4 ينظر، سيد قطب، التصوير الفني، ص87.

لكن أمر الاستنباط غير متروك على عواهله لمن شاء، فهناك قوانين تنظم الأساليب الإيقاعية، ولزاما على من يريد الخوض فيها الانصياع لضوابطها، إذ هي تعمل جميعا في وقت واحد، لينتج عنها ما نسميه الإيقاع، الذي هو الصورة المجردة من هذه القوانين، ونحن ندرك تلك الصورة بالحسّ مباشرة، ولكننا حين محاولة تحليل هذا الإدراك نضطر للكشف عن هذه القوانين.[1] وأول قانون يعترضنا أثناء التحليل هو:

أ: النظام:

نعني به الترتيب الموضوعي البسيط، الذي تسير وفقه الوحدات البارزة في الأثر الفني، حيث تشكّل علاقاتها نمطا مستمرا، يهدف إلى إثارة التوقع وإشباعه، لأن الترتيب في توازيات ومشابهات داخل أزواج من الأبيات، يجعلنا نهتم أكثر بأية مشابهة وبأي اختلاف بينها[2]، وعندما نبحث في القرآن عن أصول هذا القانون، يُطالعنا منذ أوله بمظاهره المتعددة:

– افتتاح جميع السور القرآنية عدا "سورة التوبة " بالبسملة، وهي وحدة بارزة في مطالع النصوص القرآنية، يشبه تكرارها اللازمة في الأناشيد الشعرية، ولها ارتباط وطيد ببدايات السور ونهاياتها.

– من حيث التناغم الموسيقي: بانتهاء عدد من فواصل الخواتم بالياء والميم: كالنساء (عليم)، أو بالياء والنون أو رويّ مقارب: كالبقرة (الكافرين)، ويزداد التناغم حلاوة بالفواصل التي من نفس الاشتقاق كالأنعام، (غفور رحيم)، أو المؤمنون (أرحم الراحمين) .

أو من حيث التناسق الدلالي: بالاشتراك في معاني الرحمة، كفاصلة المؤمنون (أرحم الراحمين) المتناسقة دلاليا مع (الرحمن الرحيم) المكملة لمشاعر الرحمة [3].

أمّا حين إغفال البسملة، فالنظام يصنعه التشابه في المطالع، وقد عدّد الزركشي في البرهان عشرة أنواع من الكلام، افتتح بها سبحانه سور كتابه لا يخرج شيء منها عن ذلك، ولها من الحسن ما لا قِبَلَ

[1] ينظر والي دادة عبد الحكيم، مرجع سابق، ص 95.
[2] ينظر، نفسه ، ص96.
[3] ينظر، محمد الحسناوي، مرجع سابق، ص 199

بمضاهتها، فحسن الابتداء في التنزيل، أول ما يقرع السمع، فإن كان محررا أقبل السامع على الكلام ووعاه، وإلا أعرض عنه ولو كان الباقي في نهاية الحسن، وقد جمع السيوطي تلك الأنواع في البيتين التاليين[1]:

أثنـــى علـى نفسه سبحانـــه بثبـــو ت الحمــــد والسلب لمـــا استفتـح الســورا

والأمــرِ شـــرطِ الندا والتعليلُ والقسم الد عـــــا حـــروف التهجي استفهم الخبـــرا

- التزام عدد غير قليل من الفواصل بمقاطع صوتية معجزة، تشبه المطالع الموسيقية (الأحرف المقطعة)، وهي في غاية المناسبة لما تقدّمها وما يعقُبُها، (ألم، حم، كهيعص، طسم، ن، ق، ص) .

- اطّراد الفاصلة في جميع القرآن، وبناء جلِّها على الوقف الساكن، وتماثلها في إحدى عشرة سورة (الراء في: القمر، القدر، العصر، الكوثر/ المنافقون / الفيل/ الأعلى، الليل/ الشمس / الإخلاص / الناس).

إن هذا الاطّراد يؤدي إلى تفاعل المرتِّل مع الآيات، خاصة تلك المُؤلَفة من التوقعات والإشباعات، أو خيبة الظن أو المفاجآت التي يولّدها سياق المقطع وإيقاعه، والنظام هو المثير لتلك التوقعات والإشباعات[2]، فحين تلتزم الآيات فاصلة بعينها (الياء والنون مثلا)، يتوقع المرتل تكرارها مرة أخرى، فإن تحقّق توقّعُه أحسّ بإشباعٍ رغباتِه التفاعلية، فيتطلع ثانية لإعادة الكرّة، وإن خاب ظنه اشتدّ تمعّنُه لتعويض خيبته الأولى، وهكذا ترتسم علاقة المفاعلة الحميمة بين الآيات ومرتِّلِها، والآيات الآتية خير دليل:

قال عز وجلّ ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ المائدة 82-86، تنتظم الآيات فاصلة الياء والنون الدالة على الجمع، مشابِهَة لما قبلها، حتى إذا اعتادت الأذن نغمتها وآنست رنينها، عدل الحق عنها إلى فاصلة (الياء والميم) المقاربة لها، لينتبه المرتّل من وهمه المريح الذي تغشاه جـرّاءَ تماثل الفواصل، ويُثـار فيه حبّ الاطّلاع والاستكشاف.

[1] السيوطي، الاتقان، ج03، ص 363.

[2] ينظر، محمد الحسناوي ، مرجع سابق، ص 190.

والحق أن للوقف بأنواعه المختلفة، سَهْمٌ بارز في تكوين تلك العلاقة، وإنه لظاهرة تتراءى في التقسيم الخارجي بالأثمان والأرباع والأنصاف والأحزاب، وفي الداخل بالفواصل حين انتهاء المعاني، وبأشباه الفواصل حين تعالقها، ولا يخفى ما يهيئه الوقف عندها، من استراحة النفس وحصول التدبر وإيقاع يأسر القلوب، لاسيما في الفواصل المنتهية بحروف المدّ، " وقد كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون وحكمته وجود التمكّن من التطريب ... فجاء القرآن على أعذب مقطع وأسهل موقف " [1].

إن الوقف والابتداء فن جليل يعرّف بكيفية أداء القرآن، ويترتب على ذلك فوائد كثيرة واستنباطات غزيرة، فبه تتبين معاني الآيات، ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات [2]، لأنه واحة وارفة الظلال للتأمل فيما تُلي بهدوء نفسي عقب عناء التلاوة.

ب- التغير:

يُعنى هذا القانون بمظاهر الخروج عن نسق التوالي وكسر رتابته، اعتمادا على تقنيات آلية التلقي التي يراكمها قانون النظام، تُدعى ' تقنية إخلاف التوقيع '، وله دلالة نفسية تهدف للتأثير على المتلقي بإحداث الصدمات والمفاجآت[3]، فمخالفته إذاً لقانون النظام قبله بيّنة واضحة، إذ النظام يسعى للسير البسيط المتوالي، والتغير يسعى للخروج عنه.

والدلالة النفسية –هاهنا– منبعها الإحساس الممتع بالتطواف بين المتغيرات، وصرف الملل الذي يعتري النفوس جراء الخندقة في قوالب محددة، ولأنّ الافتنان في مذاهب الكلام تهدف " للمراوحة بين المعاني الشعرية والمعاني الخطابية، ... وشيمة النفس التي جُبِلت عليها حبّ النّقلة من ... الشيء المتنوع إلى غيره من المتنوعات، لكنها تحتمل من التمادي عليه ما لا تحتمل من التمادي على ما تنوّع له أصلا، ... وكلما وردتْ أنواع الشيء وضروبه مترتبة على نظام متشاكل وتأليف متناسب، كان ذلك أدعى لتعجيب النفس

[1] الزركشي، مصدر سابق، ج01، ص 69.
[2] نفسه ج 01، ص 342.
[3] والي دادة عبد الحكيم، مرجع سابق، ص 97.

وإبلاغها بالاستماع من الشيء، ووَقَعَ منها المَوقِعَ الذي ترتاح له "[1]، ولذلك كانت الثورة على الأدب الجاهلي (بمقدماته في الطلالية والخمرية، وقصائده الموحَّدة الروي) من أوائل الظواهر المُلِفتةِ في نقد آداب تلك الحقبة.

والقرآن الكريم أُنزل منجّما بفواصل متفقة أو متقاربة أحيانا ومختلفة تماما أحيانا أخرى، وهو سبحانه أعلم أنّ ذلك يطْرد السأم ويجلب الأُنس لنفوس الذاكرين، فالتغير بين أساليبه وفواصله يُحدِثُ مفاجآت جليلة، لا تقلّ أهمية عن دور الإشباع، والفاصل بين تغير فجائي لطيف، وآخر يلغي الإيقاع ويحزّ قبحه في النفوس، التأثيرُ الذي يعتمد على العلاقة الرابطة بين الأجزاء التي تؤلف الكل[2]، مما يزيد النص ترابطا وتآلفا؛ ومن مظاهر قانون التغيّر في التنزيل:

– اهتمامه بالتناسب بين إيقاع الجو العام والأغراض البلاغية، يقول سيد قطب: " إن في القرآن إيقاعًا موسيقيًّا ... يتناسق مع الجو ويؤدي وظيفة أساسية في البيان ... لمّا كانت هذه الموسيقى القرآنية، إشعاعًا للنظمِ الخاص في كل موضع، وتابعة لقصر الفواصل وطولها، كما هي تابعة لانسجام الحروف في الكلمة المفردة، ولانسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة" [3]، وأغلب السور الطوال أخذت بهذا القانون في تقفية فواصلها[4]، ومنها سورة الحج التي جاءت فواصلها متغايرة، حتى لا تكاد تقع على فاصلتين متماثلتين متتابعتين إلا نادرا، لأن آياتها " مشتركة بين المكي والمدني كما يبدو من دلالة آياتها، وعلى الأخص آيات الإذن بالقتال وآيات العقاب بالمِثل، فهي مدنية قطعا، فالمسلمون لم يؤذن لهم في القتال والقصاص إلا بعد الهجرة، ... والذي يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية، وجو السور المكية. فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة، وإثبات البعث، وإنكار الشرك، ومشاهد القيامة، وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون.. بارزة في السورة وإلى جوارها الموضوعات المدنية "[5] أما مدنيتها فتثبتها تسميتها (الحج) وتضمنها للأحكام المتعلقة به المفصلة في هذه السورة.

[1] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دتح، دط، المكتبة الالكترونية الشاملة، ص 78

[2] الحسناوي، مرجع سابق، ص 206.

[3] سيد قطب، التصوير، ص 102.

[4] الحسناوي، نفسه ص 209.

[5] سيد قطب، الظلال، ج 04، ص 2406.

– شمولية روي الفواصل لحروف العربية جميعا، مع تفاوت ظاهر بينها، باستثناء حرف 'الخاء' المعدوم في نهايات الفواصل، أمّا أشْيعُها فحروف النون، الذي يلي 'الياء أو الواو' وبلغت فواصله 3050، وأقلّها حرف 'الغين' الذي ورد مرة واحدة[1] في قول ربنا ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ النساء 63، (حرف النون 51%، الميم 12.38%، الراء 11.04%، الدال 4.62%) والملاحظ أن الحروف اللسانية أكثر حضورا من الحلقية [2]، لما فيها من يُسْرٍ في النطق يناسب الاختتام والتطريب.

– ورود الفواصل المنفردة تَجَاوَزَ النهاياتِ لِيتخللَ ثنايا السياقات ومطالع السور، فمما ورد في البدايات قوله سبحانه ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ النصر 01، مخالفة للفاصلتين المنونتين بعدها، ومما ورد في ثنايا السياق ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ عبس 32، مغايرة لما قبلها وما بعدها.

– التغير يظهر كذلك في أبنية الكلم وطول الفقرات وفي تنوع الأغراض، خاصة في المتشابهات ومنها قوله عز وجل: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾المائدة 15

وقوله تقدست أسماؤه ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة 19، فهو سبحانه في الأولى نوّه بأقبح صفات أهل الكتاب، نقض الميثاق ومنه إنكار نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، فأقبل عليهم مخاطبا واعظا، لما تهيأ من ظهور صدق الرسول ما يسهل إقامة الحجة عليهم، وفي الثانية كرّر موعظتهم ودعوتهم بعد أن بيّن لهم فساد عقائدهم وغرور أنفسهم، بيانا لا يدع للمنصِفِ عذرا بالتمسك بالضلالات[3]، فتغير الأبنية أدّى إلى طول الآية الثانية عن سابقتها، وإلى تغيّر الدلالة البلاغية بينهما، فنتج

[1] الحسناوي، نفسه، 210.

[2] محمد هانم حجازي، مرجع سابق، ص 188.

[3] ينظر، ابن عاشور، مصدر سابق، ج 06، ص 150- 157

عنهما تغير الإيقاع لما ذكرناه قبل " أن التنقل بالقارئ من ضرب إلى ضرب ومن وزن إلى وزن ومن نغم إلى نغم، ومن هيئة موسيقية إلى أخرى، يكتسب بها الأسلوب جدة وحداثة وطرافة مستمرة"[1]

فقانون التغير؛ زيادة على أنه يُحدثُ صدمة سعيدة بالتلون والدهشة في الأساليب، فهو كذلك متحرر من الاطراد في نظمه لاسيما في الفواصل، ولقد ذكر سيد قطب كلاما بديعا يوجز فيه أصول هذا القانون، حينما شبّه تغيّــر الإيقاع بتغير البحور الخليلية في الديوان الواحد " إن الفواصل تقصر غالبًا في السور القصار، وتتوسط أو تطول في السور المتوسطة والطوال، وبالقياس إلى حرف القافية، يشتد التماثل والتشابه في السور القصيرة، ويقل غالبًا في السور الطويلة ... وذلك مع تعدد الأساليب الموسيقية ولو تشابهت القوافي في السور المختلفة " [2] يتم ذلك كله في سبك حسنٍ و إيقاع ذا جودة راقية.

ج: التساوي:

يُقصد به تساوي الوحدات اللغوية فقرة فقرة، أو آية آية في السورة الواحدة، وتساوي عدد الفواصل من فقرة إلى أخرى أيضا، كما يَمْثُلُ هذا القانون في تشابه البنى التركيبية أو الصرفية (الموفولوجية) وفي تشابه مبادئ القرائن[3]، بهدف إثارة التوقع والإشباع وهذا وجه الشبه بينه وبين قانون النظام قبله.

تبْرُزُ مظاهر هذا القانون بوضوح في قول ربنا ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ *وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ التكوير 10- 14 .

- تساوي الآيات وتشابهها لِتصدّرِ ظرف الزمان الاستقبالي بداياتها، ونائب الفاعل وعامله بعده.

[1] ينظر، والي دادة عبد الحكيم، مرجع سابق ص 99.
[2] سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ص 107.
[3] ينظر، نفسه، ص 99.

- تساوي البنى الصرفية (الأفعال مبنية للمجهول فواصل، وقبلها أسماء مُمهِّدة للفواصل ومتعلقة بأفعالها).
- تساوي الفواصل في الطول تبعا لتساوي الوحدات اللغوية في كل آية.

وتتجلى دلالة التساوي حينما يندمج الإيقاع مع الغرض المُراد، فالبرجوع إلى سياق الآيات، نجد أن الآيات مُساقة لتُبيّن " حقيقة القيامة، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل، يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار، والأرض والسماء، والأنعام والوحوش، كما يشمل بني الإنسان، والإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جائحة؛ تنطلق من عقالها، فتقلب كل شيء، وتنثر كل شيء، وتهيّج الساكن وتروع الآمن، وتذهب بكل مألوف، وتبدل كل معهود، وتهز النفس البشرية هزا عنيفا طويلا، يخلعها من كل ما اعتادت أن تسكن إليه، وتتشبث به، فإذا هي في عاصفة الهول المدمر الجارف ريشة لا وزن لها ولا قرار ولا ملاذ إلا في حمى القهار "[1]، لذلك تجد قرائن الفقرة الأولى تنتهي بأفعال مبنية للمجهول مُضعّفة، وما خالف هذا يكاد يختفي أمام قوة جرس التضعيف، لِيخْفُتَ هذا بتغيّر لطيف يصنعه الاستفهام دون الخروج عن نسق التساوي العام الشائع في السورة ﴿ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ سؤالَ تطييب لها وتبكيت لوائدها: بأيّ ذنب كان دفنها[2] ؟.

ثمّ تعود إلى جو الشرط والإيقاع القوي، والتقسيم المتساوي للفقرات، لتُواصل إرهاب القلوب وتصوير الحقائق، وتخلُص من ذلك بنتيجة عليها مدار المصير يومئذ ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ لتترك في النفس بقية من رنة الخوف تراودها، لعلها تُقبل على مصدر النجاة سبحانه، لأن هذه " السورة تؤدي بإيقاعها وصورها وظلالها وحقائقها ومشاهدها، ما لا تؤديه أية ترجمة لها في لغة البشر وتصل بذاتها إلى أوتار القلوب فتهزها من الأعماق " [3]، ولا أدلّ على هذا من تعبير ربنا بالماضي على المستقبل " أحضرتْ " للدلالة على حرية الكسب، فمن أحضر بصحيفته الخير والتقوى فقد أُزلفت له الجنة، ومن أحضر الثانية فقد رضي – عياذا بالله – بالنار ملجأ ومآبا يومئذ .

[1] سيد قطب، مصدر سابق، ج 06، ص 3836

[2] نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ط 02 (2009)، ص 586.

[3] سيد قطب، نفسه، ص 37 .

فإذا كان التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن [1]، لتقرير حقائقه الباهرة التي تأخذ بالألباب، فإن قانون التساوي من أهم الوسائل الميسّرة لذلك، لأنه يفرض بإيقاعاته المتساوية، نغما يجسّد الصورة المحسوسة للمعنى، حتى لكأنه رأي العين.

د: التوازن:

تعددت تسمياته (التعادل أو التكافؤ أو المماثلة أوالموازنة)، ويعتمد هذا القانون على الإيقاع الذي تحدثه البنية " المورفولوجية "، أثناء تناسب القرينتين الأخيرتين في الوزن العروضي دون التقفية في متوالية لغوية، والمقصود هنا بالوزن العروضي الإيقاع العام الذي يخلِّفه التشابه في البنيات، وليس الوزن العروضي الخليلي، الذي يُعدّ جزءً صغيرا منه، وأساسه مقابلة الصوائت بالصوائت والصوامت بمثيلاتها، بغض النظر عن زيادات الحروف وأصالتها، ومثاله في كتاب ربنا ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ التوبة 82، " قليلا وكثيرا " مشتركتان في الوزن العروضي "فعولن".

وذكر ابن الأثير أنّ " أمثال هذا في القرآن كثير، بل معظم آياته جاريه على هذا النهج، حتى إنه لا تخلو منه سورة من السور" [2]، ومن مظاهره في التنزيل:

– التوافق: تكون فيه الوحدات على وزن واحد، كقول ربنا حكاية عن "موسى وهارون": ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ * وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الصافات 118.

– التضاد: تكون فيه الوحدات مبنية على الطباق الذي يُحدِث إيقاعا متناغما، أساسه المضادة بينها كقوله سبحانه: ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ التوبة 82.

– التكامل: تكون وحدات المتواليات متعلقة ببعضها، نحو قوله جل ثناؤه ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ عبس 01-02، فدلالة آية "عبس وتولى" تثير سؤالا عن سبب العبوس، الذي تجيب عليه الثانية "أن جاءه الأعمى"، فالتعالق الدلالي يؤدي إلى التعالق الإيقاعي.

[1] ينظر، سيد قطب، التصوير، ص 147.

[2] ابن الأثير، مصدر سابق، ج 01، ص 293

– الإجمال والتفصيل: أو ما يسمّى لدى البلاغيين "التقسيم" هو أن يريد المتكلم متعددًا، أو ما هو في حكم المتعدد، ثم يذكر لكل واحد من المتعددات حكمه على التعيين[1]، ... حيث أن "الاثنين في التقسيم لا يمكن أن يكون لهما ثالث، والثلاثة لا يجوز أن يكون لها رابع" [2]، ومثاله من كلام ربنا ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ الرعد 13، ورؤية البرق لا تقتضي إلا شيئين، الخوف من الصواعق والطمع في هطول المطر، فانظر هل ترى لهذين ثالثا.

– التدرج: في ذكر الشئ ومنه قوله سبحانه ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ النور 35، فالله سبحانه تدرّج في تشبيه نوره، من المشكاة إلى مصباح في زجاجة إلى زجاجة كأنها كوكب دريّ.

ولقد تنبّه الناس لما في هذا القانون من جمال، يتأتى من المحافظة على الوزن وتغاير التقفية، ليحصل للمرتّل بعد هذا انتباهٌ ومؤانسةٌ، لما في ذلك من حسن تأليف وربط للمعاني بإيقاعاتها، لاسيما حينما يتزين النص القرآني بألوان من علم البديع كالطباق والتقسيم واللف والنشر ... تعمل جميعا في متواليات ازدواجية، تعجز عن ضبط إيقاعها بحور الخليل وتفعيلاته، مما يوحي بإمكانية استنباط أوزان جديدة، خاصة في ظل مروق الأعمال الأدبية المعاصرة من تلك الإيقاعات الخليلية، ولا يعني هذا رتابة تلك الأوزان أو عدم جدواها، فهذا لا يقوله عاقل، ولكن النص القرآني – المثل الأعلى– في كل شيء، يفرض بإيقاعاته نمطا موسيقيا تتطلع إليه الأذن الذواقة، ولقد جاءت الآثار بخبر خبوِ جذوة شعر حسان بعد إسلامه، وهجران لبيد العامري قول الشعر بعد نزول القرآن، لِما استهواه من حسن نظمه وجودة إيقاعه، مما لم يُسبق أن عرفها فحول أرباب الصناعة الشعرية أنفسهم.

ولنعد لقوله سبحانه ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ إذ أول ما يشدّ الانتباه فيه، الطباق الحاصل بين وحداته (يضحكوا، يبكوا / قليلا، كثيرا) الذي حوّلها حكمة بالغة – والقرآن كله حِكم –، تضطرب

[1] ابن حجة الحموي، مصدر سابق، ص 270

[2] نفسه، ص 273.

لهولها النفس اللوامة حينما تتفكر في عاقبة أمرها، " إنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المعدودة، وإنه لبكاء في أيام الآخرة الطويلة "[1]، فتأمل كيف يجمع القرآن المعاني العظيمة الجليلة بإيقاعاتها الراقية المحسوسة.

هـ: التلازم:

وهو ألا يرد عنصر إلا لازَمَهُ في السياق عنصر آخر عليق به، ملازمة منطقية موضعية بالمجاورة القريبة أو المجاورة البعيدة[2]، وأصله عند الأسلاف "التطريز"[3]، وعرّفه المحدثون بقولهم: التلازم هو "ماله عَلَمَان: عَلَمٌ من أوله وعَلَم من آخره"[4]، ويمثلون له بقوله سبحانه ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ الروم 20- 24.

فالعَلم الأول في الآيات هو " ومن آياته " التي تُستفتح بها كل آية من الآيات أعلاه، والعَلَم الثاني المتعلق بسياق الأول هو "إن في ذلك لآيات" التي ترِدُ في نهايات كل آية كذلك، فينشأ بهذا ترابط دلالي وإيقاعي يشبه ترجيع الصدى، بغية الإحالة على ضرورة الالتفات لما في سياق هذا الترجيع. ومن مظاهره في التعبير القرآني، ما يحلو لبعض الدارسين تسميته بتلازم المراوحة وتلازم المجَاوَرة[5].

- تلازم المراوحة: وهو ما تراوحت فيه وحدتان ظاهرتان، تستحوذ إحداها على البداية والأخرى على النهاية، على أن تراوحهما يكون بتشابه الوحدتان تماما أو اختلافهما اختلافا يسيراً، وكلتاهما تهدفان لتأكيد المعنى أو التعقيب عليه، ففي الآيات السالفة، يتراوح العَلمان (ومن آياته، إن في ذلك لآيات) لتأكيد المعنى المتضمَنِ في السياق؛ الذي آثر في الفواصل الانتقال من الضعف إلى القوة.

---

[1] سيد قطب، الظلال، ج 03، ص 1683

[2] ينظر، والي دادة عبد الحكيم، مرجع سابق، ص 105.

[3] التطريز: كما عرفه العسكري في الصناعتين "هو أن يقع في أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية في الوزن، فيكون فيها كالطّراز في الثوب".

[4] الحسناوي، مرجع سابق، ص 254.

[5] ينظر، والي دادة عبد الحكيم، نفسه، ص 105-106.

فجاءت الفاصلة الأولى "يتفكرون" والثانية "العالمين" والتفكر أخص من العلم وطريق له، أمّا الثالثة والرابعة فاختتمها سبحانه "يسمعون" و"يعقلون" والسمع كذلك أضعف من العقل وطريقه له، لأن الذي يستمع سماع تفهم واستبصار [1]، يقوده سماعه لعَقْل تلك النعم بعِقال الشكر والحمد، فمن شكر النعم فقد قيدها بعقالها ومن كفرها فقد تعرض لزوالها.

- تلازم المجاورة: يحدث عند تجاور المتطابقات، ولا ينصرفن بك الذهن إلى معنى التضاد فحسب، بل يشمل كذلك التشابه والتكامل بين الثنائيات المتلازمة في تعابير النصوص القرآنية، وفي الآيات السابقة كثير منها:

فمن حيث تلازم التشابه نجد اقتران: من " أنفسكم أزواجا/ خلق السماوات والأرض/ منامكم بالليل والنهار/ يريكم البرق خوفا وطمعا؛ فلا ترد واحدة إلا مع لازمتها، ومن حيث تلازم التضاد نجد: منامكم، ابتغاؤكم/ الليل، النهار/ يحيي، موت.

إن جرس هذه الثنائيات يُشيع جواً إيقاعيا يتناسب وتكرار عنصري التلازم (ومن آياته، إن في ذلك لآيات) من جهة، ومن أخرى يسهم في تصوير وقائع الأحداث وتعداد النعم، التي يمتن بها سبحانه على عباده.

و: التكرار:

وهو من أشهر القوانين الإيقاعية تداولا في الدراسات البلاغية والدلالية، وعرّفه الزركشي بأنه: إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى خشية تناسي الأول لطول العهد به[2]، ويعتمد على إشباع التوقع كقانوني النظام والتساوي، وقد اختلف العلماء حول وقعه في القرآن اختلاف بيناً، فمن قائل به إلى منكر له البتة، غير أن الرأي الذي ترتاح إليه النفس بعد التمحيص والمدارسة، هو عدم وقوعه في التعبير القرآني، ولقد أبدع الكرماني في كتابه" البرهان في تبيين متشابه القرآن " في تبيين الفروق بين الآيات المتوهَم وقعه فيها، فقال " هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات، التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة، ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو إبدال حرف مكان حرف أو غير ذلك مما يوجب اختلافا بين الآيتين

[1] ينظر، محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج 01، ط 01 (1997)، دار الصابوني القاهرة، ص 438.
[2] الزركشي، مصدر سابق، ج03، ص 10.

..."[1]، فالتكرار ظاهرة ملحوظة في التعبير القرآني غير أن دلالته تختلف حسب السياق، وله دلالات متعددة ترجع في أصولها إلى دلالتين واضحتين هما:

- الدلالة النفسية: وهي الأثر الذي يتركه تكرار أجزاء من الآية في نفس متلقيها، وتشمل:

التقرير والتأكيد: أصله القاعدة الأصولية الشهيرة ' ما تكرر تقرر' وأوجزها الزمخشري بقوله "مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقريره "، فتكرار الأمر بالصلاة مثلا ﴿أقيموا الصلاة﴾ يقتضي تقرير تأديتها وتأكيد المحافظة عليها في أوقاتها.

التهويل والتعظيم: استنادا لأساليب لغوية كالاستفهام في مثل قول ربنا ﴿ القارعة ما القارعة ﴾

الوعيد والتهديد: ومنه قول سبحانه ﴿ سأصليه سقر وما أدراك ما سقر ﴾

- الدلالة الإيقاعية: وهي الأثر الموسيقي الناتج عن تكرار الأصوات اللغوية البسيطة (الحروف)، والوحدات المعجمية (الكلمات) والمعاني الكبرى الدالة (الجمل).

فأثر الحروف يظهر حينما تتكرر أصوات ذات صفات معينة مناسبة للأغراض العامة، فمعاني الرأفة والرحمة تشيع فيها حروف اللين والرخاوة والهمس كسورة مريم والناس، والمعاني الشديدة يشيع فيها تكرار الأصوات الشديدة والمجهورة والمستعلية وهكذا دواليك، وشيوع نوع من الحروف، يقود إلى ذيوع نوع خاص من الكلمات، مناسبة في أجراسها لحروفها، ومنهما تنتج الجمل المكونة للمعاني الكبرى، والقرآن الكريم تصرف بعناية بالغة في نصوصه من أجل تحقيق هذه الدلالة، ففي قوله تعالى ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ الآية 22، جاء بلفظة غريبة لا تجدها في غير هذا الموضع، وهي مناسبة في جرسها الموسيقي لغرابة الحكم الذي ادّعوه على الله سبحانه، بزعمهم أنّ له الأنثى التي لا يرضونها لأنفسهم [2]، ولإيقاع السورة العام الشبيه بمنظومة موسيقية ... يسري التنغيم في بنائها اللفظي كما يسري في إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة [3].

[1] برهان الدين الكرماني، أسرار التكرار في القرآن أو (البرهان في متشابه القرآن)، تح: أحمد عطا، ج 01، دار الفضيلة، دط، ص 64.

2 ينظر، نخبة من العلماء، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد السعودية، ص 526

3 ينظر، سيد قطب، الظلال، ج 06، ص 3404.

وفِعل التكرار في الإيقاع، تبديه –بوجه أخصّ– الفواصل القرآنية اللازمة، التي تتردد بين الفينة والأخرى، مناسبة في إيقاعها لما يسبقها وما يلحقها، إذ النفس تنشد ما فيها من استقرار موسيقي متناغم، خاصة إن كان الاستقرار بعد تعدّد الإيقاع وتنوعه.

ز: التوازي:

وهو الغاية التي نُدَنْدِنُ حولها في هذا البحث، ويهدف هذا القانون كسوابقه إلى لحم أجزاء النص ببعضها، من خلال ما يحدثه تشابه البنيات واختلاف المعاني، في توازي التركيب الثنائي مع المعاني الكبرى، أو توازي الوحدات المعجمية والنحوية كل وحدة بإزاء أختها، أو في مجموعة لغوية مقابل أخرى[1]، وقد أسهبنا القول فيه آنفا فلا نرى داعياً لإعادته، ومقصدنا هاهنا تبيان جمالية قانون التوازي، بإبراز أثره في التناسق الفني للتعبير القرآني.

وأول ما تسفر عنه تلك الجمالية، إسهام التوازي في الموسيقى التصويرية للمشاهد والأحداث، يُعاينَها المرتّل من خلال مرتكزات التوازي "التشابه والتضاد"، والبيانُ قول ربنا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ البقرة 264- 265.

تصور الآيتان مشهداً متشابها هو إنفاق المال، لكنّ دافعه متنازع بين مراءاة الناس وابتغاء رضوان الله سبحانه، وهما دافعان متضادان لمشهد واحد، فدافع الرياء شُبه بصخر أملس عليه تراب، فأصابته السماء بوابلٍ من مطر أزاح عنه الطبقة الترابية التي غشته، وهو تصوير دقيق بليغ لحال النفس الخبيثة المُرائية، المتخفيّة خلف ستار الرياء الذي أحبط كسبها، أما دافع مرضاة الرب سبحانه، فشُبّــه بجنة عالية أصابتها السماء بمطر رذاذ فتضاعف أُكلها، وهو تصوير كذلك في غاية الدقة والبلاغة لحال النفس التي استبطنت

1 ينظر، والي دادة عبد الحكيم، مرجع سابق، ص 100.

الإخلاص في إتيان المأمورات، فهذا التقسيم والتوزيع، وهذا التقابل والتنسيق[1]، حققا موازاة فريدة منقطعة النظير، إلا في كتاب الله الذي

تَغَنَّت بِمَدحه الجنّ حَتّى أَطرب الإنس منه ذاكَ الغناء

علاوة على ما سلف، يحقق الإيقاع الموسيقي في الآيات المتوازية ترابط بديعا، بواسطة جعل ذاك الإيقاع أشبه بالرجع الموسيقي للصوت، أو المعنى المرجَّع أو الاثنين معا خاصة في الآيات المتباعدة[2]، كقول ربنا: ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ آل عمران 122 وقوله بعد ثمان وثلاثين آية ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ 160 وقد اجتمع في الآيتين ترجيع الأصوات والمعنى معا، لتشابه السياق بنيهما، فنتج عنهما تناغم موسيقي عذْبٌ، يحيل المتدبر لازما على ضرورة استخراج مواطن المشابهة والمضادة بينهما.

إنّ هذا التناغم الجامع بين الإيقاع والمعنى، يولّد دلالات سياقية متعددة، تبرز بجلاء في نهايات الآيات بتوازي التعقيب، الذي قلنا أنه يأتي في شكل تذييل في نهايات الآيات، ومن الدلالات التي يوفرها:

- السخرية:

كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ البقرة 12، لأنهم كانوا يعملون الفساد سرا ويظهرون الصلاح، وهم لا يشعرون أن أمرهم يظهر عند النبي صلّى الله عليه وآله وسلم، أو لأن فسادهم عندهم صلاحا وهم لا يشعرون بذلك[3]، فاستحقوا السخرية والاحتقار في الحالتين .

- الترغيب:

كقول ربنا: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ

[1] ينظر، سيد قطب، التصوير، ص 40

[2] الحسناوي، مرجع سابق، ص 245

[3] ينظر، إبراهيم الأبياري، مرجع سابق، ج 09، ص 56.

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ آل عمران 195، فبَعْدَ أن عدّد جلّ ثناؤه صفات المؤمنين، وذكَرَ ما أعده لهم من ثواب، ختمها بما تهفو إليه النفوس، وترغب فيه الأفئدة، وهو حسن ثوابه، وفيها إشارة إلى "ما توجهوا إليه بهممهم العلية، وعزائمهم القوية، فقرعوا بابه بدوام ذكره، والتفكر في عظمة ذاته، وجميل إحسانه وبره، وتضرعوا إليه بلسان الذل والانكسار، وحال الخضوع والاضطرار، أجابهم ففتح في وجوههم الباب، ... لأنه يجيب السؤال"[1] وفي هذا ترغيب لعموم المؤمنين، فمن أراد نوالهم فليتعاطى أسبابهم.

- التوكيد:

يكون في توازي التعقيب بين المتلاحقين أو المتباعدين لتوكيد معنى بعينه، كقول جل ثناؤه ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ المائدة 44، وبعدها ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ المائدة 45، واختتمها ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ المائدة 46، نزلت الآيات في اليهود وأهل الكتاب من دون المسلمين، لكن حكمها شامل لسائر الناس، أو أنه سبحانه أراد بالكافرين المسلمين، وبالظالمين اليهود، وبالفاسقين النصارى، أو من لم يحكم منهم بما أنزله عليه الله جاحداً كفرٌ، وإن كان غير جاحد ظلم وفسق [2]، والتكرير لزيادة التقرير ، والمعنى ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به فأولئك هم " الكافرون والظالمون والفاسقون "، وهو وصفٌ لهم بالعتوّ في كفرهم حين ظلموا آيات الله بالاستهزاء والاستهانة وتمرّدوا بأن حكموا بغيرها [3]، فكانوا برفضهم التحاكم لدستور الشرع، مجانبين للصواب متبعين طريق الضلال، فاستحقوا سخط الله عليهم .

ويرى الدكتور "محمد الحسناوي" إضافة للسابق أن نسق توازي التعقيب، القائم على ذكر القرائن ثم التعقيب عليها، يُـذكِّر ظاهره بالجرس إيقاعي لشطري البيت الشعري في القصائد العربية، " لكنه أبعد غورا،

[1] ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير الكتاب المجيد تح أحمد عبد الله القرشي رسلان، ج 01، دط (1998)، القاهرة، ص 454

[2] عز الدين بن عبد السلام، تفسير القرآن، تح عبد الله بن إبراهيم الوهبي، ج 01، ط 01 (1996)، دار ابن حزم بيروت، ص 389.

[3] محمد علي الصابوني، مصدر سابق، ص 318.

لأنه تقسيم نابع من المعنى تابع له، وليس المعنى فيه تابع للتقسيم ... وقد أفاد الشعراء من هذا اللون فضمنوه أشعارهم"[1] حتى عاد بعضه حكم سارت بها الركبان شرقا وغربا، ومنه قول أبي فراس الحمداني:

سيذكرني قومي إذا جدّ جدهم (وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر)

والفيصل بين التقسيم القرآني النابع من المعنى وبين غيره من الأعمال الفنية، هو تحرّره من قيود الوزن والقافية، وعدم اشتراط مساواة قرائن ما قبل فاصلة التعقيب لقرينتها، كما في الشعر (مساواة الشطر الأول للشطر الثاني) ومع ذلك تظل جودة الترابط الدلالي لثنائياته، فوق التصنيف حتى مع الأعمال التي أخذت منه أصول الإبداع الفني، محاولة اقتفاء نهجه.

التوازي وقوانين الإيقاع:

قد يبدو للوهلة الأولى أنّ الفوارق جلية سافرة بين قوانين الإيقاع، لكن سرعان ما يتحول هذا الظن إلى ضده، حينما تجد الآية الواحدة تستحوذ على أكثر من قانون، وأنّ تلك القوانين تتضافر جميعها في النص القرآني لتشكّل إيقاعاته الباهرة، فتوقن أن الفصل بينها إنما هو لضرورة تقضيها الدراسة فقط، لأن القرآن منظومة دلالية وموسيقية متكاملة، تفضي إحداها إلى الأخرى.

ولربما كان التشابك بينها هو ما حدا ببعض الدارسين إلى اعتبار تلك القوانين، قاصرة على تغطية ضروب الإيقاع المعقّدة، فالدكتور 'والي دادة عبد الحكيم' يرى أن هناك بناءات لغوية تسيّرها أنماط لغوية لا تندرج تحت أي قانون بل تتصف "بعدم القانون ذاته، وربما كان هذا علة الغموض المزمنة التي يشكو منها الإيقاع، وتصعّب تحديد ملامحه، هذا أحد أهم ما أُغفل من قوانين الإيقاع المبدع، الهارب من رتابة البساطة المتكررة المحدودة "[2]، – ومع كامل تقديري لهذا الرأي وصاحبه – يظل رأيا يصعب تبنّيه أو الانجرار خلفه، خاصة وأن تلك القوانين مستمدة براهينها من أرقى فنون القول (القرآن الكريم)، كما أنه لم يدعم رأيه بأمثلة تؤيد ما ذهب إليه.

غير أنه اقترح اختزال تلك القوانين إلى " قانونين كبيرين: التوازي والتنوع، يحرّك كلا منهما آلة إيقاعية نشيطة وهي الترجيع ... فيضم التوازي الفواعل مولِّدة التوقع والإشباع" وقد رأيناها في قوانين "النظام

[1] محمد الحسناوي، مرجع سابق، ص 246.

[2] والي دادة عبد الحكيم، مرجع سابق، ص 111.

والتساوي والتوازن والتلازم والتكرار" فالنظام يسهم في تحريك الإشباع من خلال تعزيز التوقع، والتساوي من خلال تساوي الوحدات اللغوية والفواصل، والتوازن بواسطة المحافظة على الوزن العَروضي العام، والتلازم عن طريق الاطراد وتعليق المعاني ببعضها، أما التكرار فبإعادة اللفظ نفسه أو بمرادفه، والتوازي يجمعها كلها، وقد سبق القول أن التوازي جامع لعلوم أدائية وخطية، وأنه عنصر تأسيسي وتنظيمي في آن واحد، وفي هذا الاختزال تظهر أهمية التوازي التنظيمية، حيث جمع القوانين ذوات الوظيفة المشتركة إليه، لتصبحَ مظهرا من مظاهره تسهم مجتمعة، في إحكام ربط النص وانسجامه، اعتمادا على ما يحدثه حضورها في فنون القول عامة، من ترجيع إيقاعي يشبه ترجيع الصدى في أرض بور، ولا يخفى أثر ذلك في تثبيت المعنى في النفس، من خلال التشخيص والتصوير الفنيين.

أمّا التنوع فيضم عناصر "التغير والمباغتة والدهشة والأريحية "[1]، وذلك بما يُحدثه من تفاعل بين المرتل والآيات، التي تجذب الانتباه وتثير الفضول، بغية تحقيق الترابط والانسجام النصي لآي القرآن.

إن هذا الاختزال يؤكّـد ما ذُكــر آنفا، من أن قوانين الإيقاع تتمازج وتعمل مجتمعة في آن واحد، من أجل رسم هندسة الإيقاع في التركيب القرآني المشحون بألوان الإعجاز المختلفة، اللغوية منها والجمالية والإيقاعية ... الخ.

[1] نفسه، ص 112

الفصل الثالث:

بلاغة التوازي في السور المدنية

المبحث الأول: التوازي آيات كاملة في السور المدنية.

المبحث الثاني: التوازي في بدايات وثنايا الآيات المدنية .

المبحث الثالث: التوازي في نهايات الآيات المدنية .

توطئة:

قبل الشروع في تبيان بلاغة توازي السور المدنية، – بعد بيان المفهوم والعوامل المؤثرة فيه – أجدني مضطرا للعودة لتفصيل القول عن خصائص السور المدنية، إذ معرفة مقتضى أحوال المخاطبين تسهم في تجلية الظواهر اللغوية الواردة فيها، وأول ما يبادرك فيها، طول سورها الناشئ عن تشريع الأحكام والآداب والفرائض والسنن، وذكر تفاصيلها ترغيبا في العمل بها أو ترهيبا من مخالفتها، ولذلك تجد أنّ أكثر السور الطوال مدنية، وأكثر الآيات طولا متضمنة فيها، فآية الدين مثلا استغرقت صفحة كاملة في المصحف الشريف، تليها آية الفرائض وآية المحرّمات من النساء في سورة النساء ... الخ وكلها في الطوال، وهاهنا يستوقفنا رأي شذّ به الزرقاني في المناهل حينما أرجع سبب الطول إلى " أن أهل المدينة لم يكونوا يضاهئون أهل مكة في الذكاء والألمعية، وطول الباع في باحات الفصاحة والبيان، فيناسبهم الشرح والإيضاح، وذلك يستتبع كثيراً من البسط والإسهاب "[1] والواقع ينقض هذا، فالمدينة كانت مركز عبور لقوافل التجار، والمهاجرون أكثرهم مكيون، وفيها أهل الكتاب وهم أقدر على نشر الأباطيل، فكيف يتأتى دفع ضلالات هؤلاء وأولئك مع قوم ذكاؤهم غير متقد ... ؟!.

ومعلوم أن تفصيل الفرائض والأحكام، والعناية الموسعة بالآداب، جاء بعد تمكّن العقيدة من نفوس المخاطبين، التي أُجملت قضاياها في القرآن المدني، تذكيرا بها وتأكيدا عليها لعظيم أثرها في الامتثال[2]، وتبعا لذلك التفصيل شاعت ألفاظ تتجانس مع تلك موضوعاتها في الدلالة، كموضوع الجهاد الذي يجمع إليه ألفاظا مثل (قاتلوا، في سبيل الله، جاهدوا ...) وموضوع النفاق الذي برز مع قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، فاستوجب ذلك تنزيل سور كاملة لكشف سوءات بواطن المنافقين، ثم موضوع أهل الكتاب الذي كان الحِجاج أبرز سماته، قصد تصحيح التحريف الذي أحدثوه فيما خُصوا به من كُتب.

ونتاجا لذلك جاء القرآن المدني في أغلبه بأسلوب رفيق هيّن، تكثر فيه ألفاظ الأحكام كالطلاق والنكاح والأمر بفضائل الأعمال كالصدقات، والنهي عن رذائلها كالربا والزنا والخيانة ... الخ، تحدثه

[1] عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج 01، ط 03، مطبعة عيسى الحلبي وشركائه، سوريا، ص 204 .

[2] ينظر، محمد عبد الرحمن الشايع، المكي والمدني في القرآن، ط 01 (1997)، مكتبة الملك فهد السعودية، ص 52 .

النداءات الإيمانية نحو: يا أيها الذين آمنوا ، يا أهل الكتاب، يا بني إسرائيل ... لأن المخاطَب إذا نودي بأحبّ الأسماء إليه، أقبل على المخاطِب بمجامع سمعه وإن خالف مقتضى الخطاب المأمور به، وذلك أدعى لإقامة الحجة عليهم .

إذا ما فهمنا هاته الخصائص، أدركنا أن للسور المدنية وحدة موضوعية مترابطة، وأن التشابه والاختلاف المتواتر فيها سرّ من أسرار الإعجاز القرآني عـــــامة.

المبحث الأول : التوازي في آيات كاملة :

غايتنا هاهنا الكشف عن جوهر التشابه الذي يلحظه المرتل لكتاب الله، فيما سُمي من قبل **"تواز دقيق يشبه التكرار"**، وأول الآيات التي تبديه لك، تلك التي كُرِرتْ بنياتها ومعانيها تكرارا تاما في القرآن المدني، تارة في السورة نفسها، وأخرى في سور متقاربة أو متباعدة، كأن يُذكر المعنى في سورة من الطوال ثم يعود سبحانه لتأكيده في سورة من المفصّل، لتبقى جسور الترابط ممتدّة بين السور، سيرا على سَنن القرآن في التفنن بإعادة المعاني بغية ترسيخها في الأذهان.

وهذا اللون من التوازي كثير في السور المدنية، منه **ما يقع في السورة نفسها** نمثل له بالنماذج التالية:

- قال ربنا سبحانه ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ البقرة 18

وقوله ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ البقرة 171

إن تشابه بنيتي الآيتين يصنعه وحدة سياقهما، الذي ينبأ عن حال من أشد أحوال التكذيب التي تعتري المشركين والمنافقين، حينما يضلون عن الحق على علم معطلين أسباب الاتصال به، ففي الآية الأولى جعل سبحانه إصرارهم على الضلال نتيجةً لإعراضهم عن سماع الحق " سماع تدبر، فهم صم عنه بُكْم عن النطق به، عُمْي عن إبصار نور الهداية؛ لذلك لا يستطيعون الرجوع إلى الإيمان الذي تركوه، واستعاضوا عنه بالضلال"[1]،أما في الآية الثانية فشبههم سبحانه بالبهائم التي ليس لها من حديث سائسها إلا الصوت دون المعنى، لأنهم حينما اقتفوا آبائهم منعوا عقولهم من الانتفاع بالحق الظاهر لديهم، وكأنهم في الحالتين أجمعوا أمرهم على مجانبة الصواب.

[1] نخبة من العلماء، التفسير الميسر ص 04

كما أن تنوين الصفات الثلاث (صمٌّ، بكمٌ، عمي) في الآيتين، يومئ إلى التوازي الصوتي الذي يعين على ترسيخ الدلالات المتقدمة، لما فيه من دلالة التأكيد وملازمة الصفات لموصوفها، إضافة لحفاظه على الإيقاع العام للسورة، من خلال تكرار نفس البنى للغرض ذاته في سياقات متنوعة، تحقيقا للترابط والانسجام النصي.

- قال ربنا في سياق تنبيه المؤمنين ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ البقرة 141/143 التي أعيدت مرتان:

أولهما بعد الحديث عن قصة رفع نبي الله إبراهيم لقواعد البيت الحرام، في معرض تنبيه المؤمنين أن الإسلام دين الله الذي وصى به الأنبياء أبناءهم للتمسك به.

وثانيهما عقب قصة ادعاء بني إسراءيل نسب نبي الله إبراهيم وذريته لليهود والنصارى، ومغزاها قطع التعلق بالمخلوقين، وعدم الاغترار بالانتساب إليهم، وأن العبرة بالإيمان بالله وعبادته وحده، واتباع رسله، وأن من كفر برسول منهم فقد كفر بسائر الرسل.[1] فجاءت الآية ببناء نحوي متشابه تماما تذييل للموقفين الآنفين، بغية نفي إفادة النسب عن عقاب الآخرة لمن ترك العمل لها اعتمادا على نسبه .

إن تكرار الآية بعد القصتين له أهمية كبرى في تبليغ المراد للمتلقي، اعتمادا على ما يحدثه إيقاعها من دلالات، فالحق سبحانه كرر الآية ليرسخ مدلولها في نفوس السامعين، اهتماما بما تضمنته لكونه معنى لم يسبق سماعه للمخاطبين [2]، من أجل ذلك جاءت تراكيب الآيتين جميعها بصيغة الماضي (تلك أمة، قد خلت، كسبت، كسبتم) الدال على حقيقة وقوع الأمر.

- قال سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ النساء 48

وقال أيضا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ النساء 116

1 نخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص 21 .

2 ابن عاشور، مصدر سابق، ج 01، ص 748.

يخبر سبحانه عن رحمته التي وسعت كل شئ إلا من مات على الشرك، لأنه حينها يكون فقد افترى على الكذب باعتقاد وجود شريك معه في ملكه، وهذا من أعظم الآثام ولا ريب، إذ كيف لمن كُرم بالعقل أن يتنكف لآيات الكتاب المسطور (القرآن) والمنظور (الكون) الصادحة بوحدانيته سبحانه، في فيجعل مع الله إلها آخر، وقد جاءه النذير الذي يهديه إلى طريق الرشد، لعمري إن هذا لهو عين حب الإغراق في الضلال.

ولعل الجامع بين الآيتين الذي أدى إلى اختلاف نهايتهما بعد تشابه بنياتهما، هو أن الآية الثانية نتيجة حتمية عن الأولى، فمن تجرأ على افتراء الكذب على الله بشركه، (الافتراء: اختلاق الكذب) يكون قد اختار الضلال عن علم ودراية، فاستحق بذلك ألا يغفر له، والتعبير بعظم الإثم وبالضلال البعيد فيه تهويل وتعظيم وتحذير من شأن الشرك بالله، فالآيتان ليستا متعارضتين أو متناقضتين، بل كل منهما تؤدي دلالة اقتضاها سياقها الواردة فيه.

- قال ربنا ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ النساء 57

وقال ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ 122

يحتفظ البناء النحوي للآيتين بترتيبه حتى الفاصلة أين تحدث المفارقة المناسبة لكل سياق.

فسياق الآية الأولى جاء عقب الحديث عن جزاء الكفار في الآيات السابقة، فناسب الآية قوله سبحانه (لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا)، فأوجز سبحانه ما أعدّه لعباده المؤمنين في أحسن عبارة "واقتصر من نعيم الآخرة على لذة الجنات والأزواج الصالحات، لأنهما أحب اللذات المتعارفة للسامعين، فالزوجة الصالحة آنس شيء للإنسان، والجنات محل النعيم وحسن المنظر، وقوله: وندخلهم ظلا ظليلا هو من تمام محاسن الجنات، لأن الظل إنما يكون مع الشمس، وذلك جمال الجنات ولذة التنعم برؤية النور مع انتفاء حره. ووصف بالظليل وصفا مشتقا من اسم الموصوف للدلالة على بلوغه الغاية في جنسه"[1].

1 ابن عاشور، مصدر سابق، ج 05، ص90.

أما اختتامه سبحانه الآية الأخرى بقوله (وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) فلأنّ الحديث فيما قبلها كان عن وعد الشيطان لأوليائه، فإذا كان الشيطان يعد بالغرور، فالله يعد من اتبع رضوانه بجنات لا عين رأتها ولا أذن سمعت بها ولا خطرت على قلب بشر قط، ووعد الله أولى بالتصديق مما سواه، والاستفهام بمن إنكاري يحتمل دلالة التقرير، إذ أصله (لا أحد أصدق من الله قيلا) .

- قال تبارك اسمه ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ التوبة 55

وقال كذلك ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾التوبة 85.

ينهى الرب سبحانه نبيه ومن خلاله المؤمنين عن الإعجاب بما حباه للمنافقين من وفرة أموالهم وأولادهم، تنبيها لهم على أنها سبب للشقاء لا السعادة، وعطف الأولى بالفاء لتفرعها على ما قبلها، مما ذكره سبحانه من شح المنافقين، أما عطف الثانية فكان على قوله "ولا تصل على أحد منهم مات أبدا" فيكون عطفها حينئذ في حكم الاستئناف، وإنما جئ العطف بالواو لربط وشد الآي ببعضها، ثم عمد سبحانه إلى عطف الأموال على الأولاد، بإعادة حرف النفي مرتين إشارة إلى ذمّها، – فحينما ذمّ الأموال استطرد لذم الأولاد– وتبيينا لعدم جدوى كليهما عن ردّ العذاب، وبناء على ما تقدم من العطف يفهم أن الآية الأولى نفت فائدة الأموال والأولاد في الدنيا ولذا كان التعبير ب "في الحياة الدنيا" أمّا الثانية فنفت ذلك بعد الممات، ليستغرق الحكم الحياة والممات، –استنادا للعطف الوارد بعد النهي عن الصلاة– أما التعبير تارة ب "ليعذبهم" وأخرى "أن يعذبهم" فهو تفنن في التأكيد على نهج القرآن في تنويع أساليب الخطاب.

- قال سبحانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ الحج 04

وقال كذلك ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ الحج 08

تصور هاتان الآيتان مشهد الذين يجادلون في آيات الله لصدّ الناس عنها، وتلك مهمة انبرى لها صناديد الكفر أمثال أبي جهل وأمية بن خلف وحيي بن أخطب ... الخ، وهم في ذلك بين أمرين: اتباع الشياطين الذين يملون عليهم الأساليب المؤدية لذلك، والجدال فيها بغير علم، ووجه المناسبة بين الآيتين كما يقول المفسرون أن حال اتباع الشياطين عام شامل لجميع المشركين (الخاصة والعامة)، لما ورد في التنزيل من

شمول اسم "الشياطين" للإنس والجن في قوله تعالى " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ" الأنعام 112

أما حال الجدال بغير علم فخاص بزعمائهم، ولذلك قيل أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث أو أبو جهل أو الأخنس بن شريق وأن المراد ب "من يجادل في الله بغير علم ولا هدى" المقلَّدون وهم أئمة الكفر[1].

ومن هذا اللون أيضا ما يقع **بين آيات في سور مختلفة، إما متباعدة أو متقاربة** منه:

قول ربنا: في سياق فضح صفات بني إسرائيل التي منها الحرص الحياة وكراهية الممات:

﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾البقرة 95

وفي الجمعة ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ 07

يخبر سبحانه المؤمنين في الآيتين عن أقبح صفات بني إسرائيل، نافيا كل إدعاءاتهم التي زعموا اختصاصهم بها من لدن الله فجاءت آية البقرة بحرف النفي "لن" لتكون معجزة للنبي بإخباره بالغيب، وزيادة تشديد وتأكيد على صدقه صلى الله عليه وسلم حين قال لهم: «والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه» [2]، فلولا أنهم موقنون لتمنوا ذلك ابتغاء تكذيبه صلى الله عليه وسلم، وصرف الناس عنه، ولأن دعواهم في هذه السورة بالغة قاطعة وهي كون الجنة لهم بصفة الخلوص فبالغ في الرد عليهم "بلن" وهو أبلغ ألفاظ النفي، أما آية الجمعة فهي تأكيد لزوم الفعل لهم مستقبلا ممثلا في أسلافهم، لأنه سبحانه ينزل المخاطَبين منزلة أسلافهم، أما ورودها (آية الجمعة) بحرف النفي " لا " فلأن دعواهم هنا قاصرة مترددة وهي زعمهم أنهم أولياء الله فاقتصر على {لا}[3]

فاختلاف الدلالتين في الآيتين يصنعه حرفا النفي (لن ،لا) ولوازمهما، وتوازيهما متجانس يبرزه تشابه السياقين، وختم الآيتين بصفة الظلم دليل عدم صدق دعواهم .

1 ينظر ابن عاشور، مصدر سابق، ج 17، ص 207

2 الزمخشري، الكشاف، ج 04، ص 531.

3 ينظر، الكرماني، مصدر سابق، ج 01، ص 76.

● قال تعالى شأنه ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة 136

وقال كذلك ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران 84

تتشابه بنية الآيتين تبعا لاتفاق دلالتيهما، وقد أُستهلتا بفعل القول لدلالته على الاعتداد بالمَقُولِ، غير أنه في آية البقرة ورد بصيغة الجمع (قولوا) إذ المولى سبحانه يخاطب به المؤمنون جميعا، ومن جملتهم النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أما آية آل عمران فخوطب بها النبي الكريم منفردا – وخطاب النبي خطاب لأمته – فلذلك أُفرد فعل القول فيها، واستنادا لاختلاف المخَاطبين في الآيتين جاءت آية البقرة بلفظ (إلينا) لأن التعدية "بإلى" تقتضي وصول الشئ المنزّل لأهله، أما آية آل عمران فجاءت بلفظ (علينا) لاختصاصه بالأنبياء إذ الكتب منزلةٌ عليهم، والتعدية (بعلى) فيها تفيد علو الشئ ووصوله مستعليا، والاختلاف في الحالتين يفيد التشريف والاعتداد بمقتضى القول.

● قال عز من قائل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ النساء 135

وقال أيضا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ المائدة 08.

تأمر الآيتان المؤمنين بالقسط والعدل وأداء شهادة الحق في الأحوال كلها، وعلى هدي القرآن في تقرير الأحكام اصطحبت كل آية لوازمها التي يقتضيها سياقها، وسنعرض فيما يلي جوهر التشابه والاختلاف بينهما:

– ابتدأت الآيتان بنداء أهل الإيمان للأثر الذي يحدثه في نفوس المخاطِبين بالحكم .

– قُدم في آية النساء " قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ " عكس آية المائدة التي قُدم فيها " قَوَّامِينَ لِلَّهِ " على " شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ" لأن الأولى أعقبت الحديث عن أحكام القضاء وأحكام التعامل بين الرجال النساء ... فاستوجب ذلك الأمرُ بالعدل قبل الشهادة في تنفيذ الأحكام، والتجرد من المحاباة والميل لأحد الخصمين اتباعا لهوى أو بناءً على قرابته أو مظهره، واختتمت بالكناية عن الوعيد الذي أعده الخبير لمن يخالف الأمر الذي ألزم به نفسه حين آمن لأن الخبير بفاعل السوء، وهو قدير، لا يعوزه أن يعذبه على ذلك [1].

أما الثانية فأعقبت التذكير بوجوب الوفاء بميثاق الله سبحانه وتأدية حقوقه، فناسب ذلك الأمرُ بالقيام لله قبل الشهادة، لأن من تمام الوفاء بالميثاق الإلهي العدل في الأمور كلها حتى مع ألد الأعداء، وعلاقة هذا بالأمر بالتقوى تظهر في كون العدل ملاك كبح النفس عن الشهوة وذلك ملاك التقوى [2]، وأعاد ختم الآية بالخبير كناية كذلك عن الوعيد المعدّ للمخالفين الأمر.

تتشابه بنى الآيتين تشابها تاما يحقق توازيا متجانسا بينهما، وما التقديم والتأخير فيهما إلا لضرورة بلاغية اقتضاها الاهتمام بالمقدّم، على مهيع العرب في كلامها من أن المقدّم في الذكر مقدّم في الرتبة كذلك.

- قال سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ البقرة 162/161

وقال في آل عمران ﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ 88/87 .

تُنبأُ الآيتان بمصير الذين يموتون على الكفر، غير أن سياق آية البقرة عام يشمل مشركي العرب ومشركي أهل الكتاب، وقد قرن الله سبحانه هذين الصنفين في الكفر فقال جل شأنه " مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو

[1] ينظر، ابن عاشور، مصدر سابق، ج 05، ص 228

[2] ينظر، نفسه، ج 06، ص 135.

الْفَضْلِ الْعَظِيمِ " البقرة 105، واشتراكهم في استحقاق اللعنة والخلود في النار نتيجة لما جنوه على أنفسهم بتكذيبهم دعوة النبي.

أما آيتي آل عمران وإن كان سياقهما يوحي باقتصار حكمهما على بني إسراءيل، الذين اشتهروا بكتم دلائل النبوة المحمدية، إلا أنهما تُحملان على العموم، وقد تقرر في علم الأصول قاعدة "شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يقيد بناسخ"، ولعل تكرار هذا المعنى في السورتين يسوّغه اشتراكهما في حجاج أهل الكتاب ودحض ادعاءاتهم حول النبوة، مما يحقق تواز متجانس يشبه التكرار.

- قال سبحانه ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ آل عمران 182

وقال كذلك ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ الأنفال 51

وقال ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ الحج 10.

– تضمنت الآيات سبب استحقاق العذاب وإثبات عدل الله سبحانه بنفي الظلم عنه، بيد أن آية آل عمران أثبت العذاب للذين قتلوا الأنبياء وقالوا " إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ " وهم أهل الكتاب، وآية الأنفال جاءت في سياق الحديث عن معركة بدر، بعد ذكر عذاب للكافرين الذين تتوفاهم الملائكة بضرب وجوههم وأدبارهم، وفيها معنى التنكيل والتشفي منهم، أما آية الحج فسياقها عام يحتمل كل من اتصف بالجدال في آيات الله بغية الإضلال عن سبيل الله، والملاحظ أن السياقات الثلاث متقاربة فاليهود مشهود لهم من أحوالهم قتل أنبياءهم وقول الفحش عن الله، وكفار العرب قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما دعاهم لكلمة الحق كما فعلت اليهود بأنبيائها من قبل، ومن يسعى بالمراء بين الناس ليضل عن سبيل الله فكأنما يحارب الله ورسوله ليصد الناس عن الطاعة، وقد وصف سبحانه المنافقين الذين أقاموا مسجدا لمثل ذاك الغرض فقال " الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُون " التوبة 107.

- قال ربنا ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ البقرة 252

وقال أيضا ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ آل عمران 108

الآيتان تذييل لما ذُكر قبلهما، واسم الإشارة "تلك" فيهما عائد إلى ما ذُكر قبلهما من القصص وما تضمنته من عِبر دالة على قدرته سبحانه في آية البقرة، ومن الآيات القرآنية المتضمنة للوعد والوعيد في آية

آل عمران، وختمت آية البقرة بخطاب النبي الكريم "تنويها بشأنه وتثبيتا لقلبه، وتعريضا بالمنكرين رسالته ... بتذكيرهم أنه ما كان بدعا من الرسل، وأنه أرسله كما أرسل من قبله، وليس في حاله ما ينقص عن أحوالهم"[1].

أما آية آل عمران فخُتمت بنفي جنس الظلم عن الله – ولذا نُكّرت "ظلما" فيها –، ليطمئن أهل الإيمان بتحقق الوعد وينزجر أهل المعصية بالوعيد الوارد في الآيات.

- قال سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾ آل عمران 10

وقال كذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ آل عمران 116.

وقال كذلك ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ 58

الملحوظ من الآيات أعلاه تشابه بنياتها في تقريرها لمصير طائفتين شكّلتا سدا لصد الدعوة، وهما طائفة أهل الكفر كما تبين الآيتان الأوليتان، وطائفة أهل النفاق كما تبينه الآية الأخيرة، مع نفي نفع الأموال والأولاد عنهم من عذاب الله، وعبر سبحانه عن ذلك بعلاقة الملازمة والالزامية فقال في الطائفتين " أولئك أصحاب النار" و " أولئك هم وقود النار"، ومعلوم من العلاقات البشرية أن الصاحب يلازم صاحبه ولا يفارقه حتى لا يكاد يذكر أحداهما إلا رفقة صاحبه، كما أن الوقود –كل ما يستعمل للإيقاد – مادة ملازمة للشئ المستوقَد بها، ومن ثمّ نفهم اشتراك الطائفتين في حكم الشارع، وما اختلاف التعبيرين إلا تفننا في التأكيد .

- وقال تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ الأنفال 28

وقال سبحانه ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ التغابن 15

ينبه الله جل شأنه المؤمنين للاحتراز من الفتنة التي يحدثها حب المال وحب البنين، بعدِّهما أهم مصادر السعادة البشرية، فجاءت الآية الأنفال بعد النهي عن خيانتي الدين والأمانة "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ"، ولما أراد الحق سبحانه الانتقال للتنبيه على ما يؤدي إليها، جاء بالفعل "اعلموا" بصيغة الأمر ليكون بمثابة الأمر الواقع المتحقق، لأن حب المال والأولاد قد

[1] ابن عاشور، مصدر سابق، ج02 ص503 .

يؤدي بالمرء إلى فعل مالا يتوافق مع مقتضى أمانة دينه، كأن يقترف المهلكات ابتغاء الحفاظ على ماله أو ولده، واختتم سبحانه الآية بالتأكيد على جزالة أجر من كف نفسه عن المنهيات، فجاء بالصفة وموصوفها منكَّرين لأن النكرة تدل على العموم كما هو مقرر في الأصول.

أما آية التغابن فوردت الآية فيها مجردة من فعل الأمر "اعلموا" وحرف التوكيد "أن" لسبق التحذير من عداوتهما —المال والبنون– "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" التغابن 14 فكان الإخبار المتقدم مغنٍ عن فعل الأمر، فكأنه سبحانه قَصَدَ قصر الفتنة في الأموال والأولاد حتى لا يُفرَطَ في حبهما إلى الحد المخرج عن الحق، وأعاد الحق سبحانه ختم الآية بما ختم سابقتها مع حذف حرف التوكيد "أن" لما أفاده السياق السورة بأسرها من الإخبار بالنهي عما يجلب الغبن والندامة للإنسان، لاسيما حين يجفو عن الحق بما يظن أنه يحقق له السعادة، فنبهنا أن الواقع عكس ذلك لنبقى ضمن الوسطية.

الملاحظ من تحليل الآيات أن ما يصنع توازيها هو سياقاتها المتقاربة، تبعا لتقارب موضوعات السور المدنية، التي أسلفنا القول في اهتمامها بتفاصيل الأحكام وبناء مقومات المجتمع الإسلامي، لذا نجد تكرار بعض البنى مع اختلافات طفيفة تشكل مع بعضها المفهوم الكامل للمعنى المراد توصيله للمتلقي، على أننا نقرر أن تلك الاختلافات استوجبتها معان هي أدعى وألصق بسياقاتها الواردة فيها، وقد أسلفنا القول أن عمود البلاغة القرآنية لا يقبل التبديل بين حروفه وكلماته فما بالك بآياته.

إن الاختلافات الواردة في التراكيب المتوازية تماما تخضع لقانوني التوازي والتنوع (التغير) في أغلبها، لذلك تحافظ الآيات على النمو المتوالي لتراكيبها، (أي أنها تحافظ على السير المنتظم المتشابه)، لا سيما في الآيات التي أعيدت بنياتها كما هي، ولا تنزاح عنه بالتنوع والتغير إلا في تلك التي رسمت خط سير مغايرا لسوالفها، إما في :

ثنايا التركيب: بغية لفت النظر للأمر المهم بتوظيف ظواهر لغوية تسهم في ذلك: "كالتقديم والتأخير" اهتماما بشأن المقدّم، أو "الحذف والذكر" بغية إظهار الاهتمام في حال الذكر أو لإهمال الشأن وتجنبا للتكرار في حال الحذف.

الفاصلة: بطروء التنوع والتغير فيها، أين يُعدل عن ذاك النمو المتوالي والسير البسيط، إلى تأكيد المعنى السالف أو إضافة معنى آخر تستوجبه الدلالة، ولازما أن يصحب ذلك تغيرا في الدلالة وفي الإيقاع العام للسورة.

المبحث الثاني: التوازي في بدايات وثنايا الآيات المدنية

نسعى في هذا المبحث إلى إبراز التوازي في بدايات وثنايا الآيات المدنية، من خلال تتبع الظواهر التي تصنعه، وسبب الجمع بين البدايات والثنايا هاهنا استحالة فصل جزئية من الآية عن سياقها العام، فضلا عن سياقها الخاص المحصور بين علامتي الوقف (المسمى آية)، فقد تجد الجزء المتوازي من الآية واقع أحيانا في ثناياها وأحيانا أخرى في بداياتها حسب ما يتطلبه السياق القرآني، ومع ذلك يبقى الانسجام والتناسق باد بينها، على إن هذه الأمثلة الواردة في التحليل ليست متفردة، بل لكل منها نظير يقاربها في سور القرآن المدني، وإنما اقتصرت عليها بعد الاستقراء، لتكون شواهد على سواها لأنّ كتاب الله بحر شاسع عميق لا يُحاط به.

ولعل أبرز ما يتدرنا لدى البحث عن التوازي في البدايات ما يلي:

أ: الابتداء: من أهم الظواهر التي تستفتح بها الآيات المدنية والتي تحقق توازي البدايات:

أسلوب النداء:

النداء من أكثر الظواهر النحوية تواترا في القرآن المدني، خاصة لفظ "يا أيها الذين آمنوا " الذي يستصحب معه أحكاما تشريعية (بالأمر أو النهي) لتهيؤ النفوس لاستقبالها، بعد خطابها بأحب الصفات إليها (الإيمان)، ولعل النداء بهذه الصيغة فيه تذكير بالعهد الذي يقتضيه الإيمان، وذلك أدعى لاستجابة المنادى لما يُلقى إليه، ومنه نفهم تكرار بعض البنى المتشابهة في كثير من جزئيات الآي المدنية لاسيما تلك المتقاربة سياقاتها.

ففي سياق **الأمر والامتنان** نجد البناء النحوي التالي:

حرف النداء + المنادى + فعل الأمر (أو بإضافة حرف نهي)

كقوله سبحانه على بني إسراءيل ممتنا ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ البقرة 40

ونحو قوله تعالى أمرا ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ المائدة 67

وقوله ناهيا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ الأحزاب 33

وفي سياق **الحجاج** نجد:

حرف النداء + المنادى + حرف الاستفهام + فعل مضارع

كقول ربنا في سورة آل عمران محاجا أهل الكتاب قصد توبيخهم وإقامة البينة عليهم ومن ثمة إبطال دعاويهم الباطلة، يتم حبك تلك المعاني وفق البناء المذكور قريبا، استنادا لدلالة حرف الاستفهام "لم" وفيها توبيخ وإنكار للمُستفهم عنه:

" يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ " آل عمران 70

" يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ " آل عمران 71

" قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ " آل عمران 98

" قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ " آل عمران 99

وقد يقترن النداء بالشرط ليكون حافزا على وجوب تعاطي الشرط ليتحقق جوابه على النحو الآتي:

حرف النداء + المنادى + حرف الشرط + فعل الشرط + جوابه

كقوله سبحانه " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ " محمد 47

ب- الإحالة: على معنى سابق الذكر في السياق بتوظيف:

أسماء الإشارة: لتعلق الحكم بالمُشار إليه المتقدم في الذكر

قال تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ البقرة 16

وقال كذلك " تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" النساء 13

التشبيه: يحيلك إلى جزاء طائفة تقدم ذكرها:

مدحا كقوله سبحانه " مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ " الرعد 35

فإيرادها هنا استئناف ابتدائي يرتبط بقوله جل شأنه ' الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب'، ... والمَثَلُ هنا يفيد التشبيه، فكأن المقصود الشبيه في حالة عجيبة، أُطلق على الحالة العجيبة غير الشبيهة لأنها جديرة بالتشبيه بها. [1]

أو ذما كقول ربنا " كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ " الأنفال 82

أي دأب الذين كفروا شبيه بدأب آل فرعون، والذين من قبلهم من الأمم المكذبة برسل ربها مثل عاد وثمود [2].

ج: التوكيد:

تُستفتح الآيات بأنواع من التوكيد:

التوكيد المطلق:

بالجملة الاسمية الثابتة: كقول ربنا ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ البقرة 121.

ونظيرتها في السورة ذاتها ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ البقرة 146

أو **المنفية** كقوله سبحانه ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ التغابن 11

أو **المؤكدة بأحرف التوكيد** كقوله " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" الحج 17

[1] ينظر ابن عاشور، مصدر سابق، ج 13، ص 115.

[2] ينظر نفسه ج 10، ص 43.

أو **بأسلوب القصر** كقول ربنا "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" الأنفال 02

أو **بالجملة الفعلية الثابتة نحو** "يسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ" البقرة 215

أو الفعلية المنفية كقوله تعالى " لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ" البقرة 225

أما عن توازي الثنايا فإن رباط الجمل ببعضها، يقتضي إعادة تلك الظواهر ببنى متشابهة في غير ما موضع لجعل النصوص المدنية متشابكة متراصة، تفضي إحداها إلى الأخرى في عناق عجيب، فكما تستحوذ تلك الظواهر على البدايات فهي تتخلل كذلك الثنايا، ومن براهنها:

الشرط: قوله تعالى " فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ..." التي أعيدت مرتين هذه إحداها وهي مختصة بالصيام، والأخرى في معرض الحديث عن كفارة الأخطاء في الحج وذلك قوله تعالى " فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ "

إضافة إلى توارد الظواهر التي تصنع توازي البدايات، نذكر هاهنا ظواهر تسهم في توازي الثنايا، نحو:

الجار والمجرور: كقول الله جل وعلا في التذكير بأصول الميثاق المأخوذ عن أهل الكتاب " وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ" البقرة 83.

وقوله في معرض تشريع المعاملات بين المسلمين "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا" النساء 36

فعلى الرغم من اختلاف الصيغ النحوية في البدايات، واختلاف نهايات الفواصل، حافظت الثنايا على توازيها بإعادة تراكيبها عن طريق الجار والمجرور.

البناء للمجهول: استعملت هذه الصيغة في القرآن المدني في سياقات كثيرة:

منها ما خصت به **بنو إسراءيل** في قوله تعالى ﴿ **ضُرِبَتْ** عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا **ثُقِفُوا** إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ **وَضُرِبَتْ** عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ البقرة 112، اشتملت هذه الآية على فعلين مبنيين للمجهول "ضربت" و"ثقفوا" والتعبير بهذه الصيغة إيماءً للزوم الشئ، أي "لزمهم الذل والهوان أينما وجدوا وأحاط بهم كما يحيط البيت المضروب بساكنه" [1]

ومنها ما خُصّ به المسلمون حينما يريد الحق سبحانه تشريع أحكام لهم مثل:

قول ربنا ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا **أُهِلَّ** بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ البقرة 173

وقله كذلك: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا **أُهِلَّ** لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ المائدة 3 تكررت صيغة "وما أهل لغير الله به" في الآيتين مع تقديم وتأخير "به" حسب مقتضى كل سياق، فإنه لما تعلق الأمر بالحلال والحرام من الأكل في البقرة قدم "به" المتعلقة بالفعل " أهل"، أما في آية المائدة فأخّره لورود الآية بعد الحث على تعظيم شعائر الله والأمر بتقواه [2]، فكأن الاهتمام بالنهي عن تعظيم غير أمر الله أولى وأدعى في هذا المقام، والتعبير في الآيتين بالمجهول دلالة على خسة المهلول له من غير الله سبحانه، لأنه سبحانه المستحق وحده بتقديم القرابين شكرا له على نعمائه.

علاوة على ما سلف ذكره، تعمل بعض البنى النحوية –لاسيما في ثنايا الآيات– بقانون التغير مخالفة المألوف تواتره في النص القرآني بغية تنويع الاستعمال، لتسهم في إبراز علاقات التوازي بالموضوعات ذات الصلة الوثيقة به، ومن ذلك:

---

1 الصابوني، مصدر سابق، ص202.

[2] بريكان سعد الشلوي، التقديم والأخير في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، مج جامعة الطائف السعودية، ج 01، ع 04 (2010)، ص 273.

- قوله تعالى ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ **وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ** وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ البقرة 191 ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ **وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ** وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ البقرة 217

استعمل الحق سبحانه للتعبير عن عظم جريمة إفتان المؤمن عن دينه، اسمي تفضيل (أشدّ، أكبر) تفننا في التأكيد، غير أنه استعمل صيغة " أشد " مباشرة بعد أمري قتل المشركين حيثما وُجدوا، وإخراجهم من البيت، أما صيغة " أكبر" فجاء بها بعد إجابة مطولة عن متعلقات بسؤال حول الأشهر الحرم، (قتال كبير، صد عن سبيل الله، كفر به، صد عن المسجد الحرام، إخراج أهله منه)، والمعنى أن " الفتنة أكبر من القتل لأن الفتنة عن الدين تفضي إلى القتل الكثير في الدنيا، وإلى استحقاق العذاب الدائم في الآخرة " [1] وولي الصيغتان حرف النهي "لا" لكن بمعنيين مختلفين، ففي الآية الأولى أفاد النهي عن القتال أو بالأحرى حرمته إلا للمضطر، أما في الثانية فأفاد التأكيد عن استمرارية المشركين إفتان المؤمنين، ليشكلا توازيا في الثنايا وفق البناء النحوي التالي:

حرف العطف "و" + مبتدأ + خبر + حرف النهي "لا" + الفعل المضارع.

إن هذا التفنن في التأكيد بصيغتي التفضيل، يحيلك حينما تتلو إحدى الآيتين لاستحضار الأخرى، ويطرح في نفسك التساؤل حول سبب الاختلاف بينهما، وأول ما يواجهك بعد التأمل فيهما اختلاف إيقاع الصيغتين بورود إحداهما مشددة، ولا يخفى ما في التشديد من قوة الدلالة وإيجاز المعاني.

- وقوله كذلك ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي **تَحْتَهَا** الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ التوبة 100

[1] أبو بكر الرازي، مصدر سابق، ج 06، ص 391.

تخالف هذه الآية أخواتها في جميع القرآن، لعدم ذكر (من) فيها مع (تحتها)، " فتكون خالية من التأكيد إذ ليس لحرف (من) معنى مع أسماء الظروف إلا التأكيد، ويكون خلو الجملة من التأكيد لحصول ما يغني عنه من إفادة التقوي بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي، ومن فعل (أعدّ) المؤذن بكمال العناية فلا يكون المعدّ إلا أكمل نوعه " [1]

[1] ابن عاشور، مصدر سابق، ج 11، ص 19.

المبحث الثالث: التوازي في نهايات الآيات المدنية

يُعدّ هذا النوع من أكثر أنواع التوازي شيوعا ودراسة في قرائن الآيات المدنية لتعلّقه بفواصلها، وهو يضم إليه سائر أنواع التوازي (تواز دقيق يشبه التكرار، تواز متجانس، تواز أقل تجانسا)، وسائر الظواهر المُسهِمة في صناعته.

غير أنه ينبغي لنا هاهنا التمييز بين نوعين من التوازي تشتمل عليهما نهايات الآيات، أولهما لا يخرج عن أُطر الأنواع العامة المذكورة سلفا، وثانيهما توازي التعقيب أو التذييل – أو النمو المتوالي كما يري المحدثون – الذي تقتضي أن تكون التراكيب العامة للقرائن على شكل قرينة فالتعقيب عليها [1]، وذلك تبعا لما تمليه طبيعة العلاقات المترابطة بين تراكيب الآية الواحدة.

فمن أمثلة النوع الأول نذكر ما يلي:

1/ تواز دقيق يشبه التكرار:

كاختلاف بعض الأوصاف: كأوصاف العذاب تبعا لاختلاف الجرم: نحو " عذاب أليم" "عذاب مهين" "عذاب عظيم"

ففي البقرة مثلا وردت صيغة "عذاب أليم" أربع مرات في سياق الزجر عن مخالفة الأحكام التشريعية بعد بيانها، ككتمان ما أنزل الله من الكتاب، قال سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة 174

أو الاعتداء بعد القصاص ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة 178

أما صيغة "عذاب عظيم" فوردت مرتين، في سياق الزجر كذلك.

بعد ذكر الختم على قلوب الكافرين الذي هو سبب عدم إيمانهم سواء أُنذروا أو لم يُنذروا قال ربنا ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ البقرة 07

[1] محمد الحسناوي، مرجع سابق، ص 241.

وبعد تشنيع ظلم الصد عن مساجد الله قال سبحانه ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ البقرة 114

أما صيغة "عذاب مهين" فذكرت مرة واحدة عقب ذم أهل الكتاب الذين اشتروا الكفر بالإيمان تهوينا به، فجُوزُا بالهوان من جنس ما عملوا، قال ربنا ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ البقرة 90

أو كالتكرار مع تجاوز بعض الحروف:

مثل ما جاء في آل عمران:

قوله تعالى بعد الدعاء ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران 16

وقوله في السياق ذاته ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران 191

وقوله كذلك " إن الله لا يخلف الميعاد " أو " إنك لا تخلف الميعاد "

02/ تواز متقارب:

وتقتضيه بوجه أخص خواتيم الآيات المنتهية بأسماء الله الحسنى، التي يغلب على بناءها "وزن فعيل" مثل ما تجسده بشكل جلي سورة النساء، حيث تجد:

في سياقات المغفرة صيغة "وكان الله غفورا رحيما" ثلاث مرات، وصيغة "توابا رحيما" مرتين

وفي سياقات إظهار الحكمة والعزة صيغة " وكان الله عليما حكيما" سبع مرات، أو "إن الله كان عزيزا حكيما" ثلاث مرات

وفي سياقات إحاطة الله بعلمه قوله تعالى " إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا "مرة، أو صيغة " إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا " ثلاثا

وقد يكون التوازي المتقارب بالتقديم والتأخير، حسب ما يتطلبه سياق الآية من تقديم الصفة أو تأخيرها، نحو:

"والله خبير بما تعملون "، " والله بصير بما يعملون " و " والله بما تعملون بصير " أو "والله بصير بالعباد"

03/ تواز أقل تقاربا:

تصنع هذا النوع من التوازي الصيغ الدالة على حقل دلالي مشترك **كأساليب المدح والذم:**

كقول ربنا مادحا: "نعم الوكيل" "نعم المولى ونعم النصير" " نعم أجر العاملين"

وقوله ذاما: " بئس المهاد " " بئس المصير" " بئس ما يشترون" "بئس مثوى الظالمين"

أو **الأساليب الداعية للتفكر والتأمل:**

كقوله مطالبا بالتأمل "لعبرة لأولي الأبصار" " لآيات لأولي الألباب" " وما يذكر إلا أولوا الألباب "

وقوله حاضا عليه " أفلا تعقلون" " أفلا يتدبرون" " أفلا تذكرون"

02/ توازي التعقيب:

يأتي هذا النوع من التوازي كخلاصة، أو تعليل أو نتيجة، لما تتطلبه الآية من نهاية تتناسب مع ما تضمنته ثناياها، وفائدته جعل المعنى المتقدّم مؤكدا بمعنى آخر يجرى مجرى الاستشهاد عليه والحجة على صحته [1]، ولذلك يأخذ أحيانا حكم الآية المستقلة، وهي الميزة المفرِّقة له عن سلفه.

ومن خلال تتبع توارد هذا النوع في آي سورة البقرة مثلا نلحظ ما يلي:

أ: من توازي التعقيب ما جاء آية تامة – وله نظائر في القرآن المدني طبعا – كقول الله سبحانه:

" ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون " البقرة 12

" والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون" البقرة 82

"الحق من ربك فلا تكونن من الممترين" البقرة 147

" خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون" 162

ب: ومنه ما بعض آية في ثنايا الآيات كقول ربنا:

وقوله " ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب " 179

كذلك قوله " تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ " 187

وقوله " والفتنة أشد من القتل " 191

ومثله " والفتنة أكبر من القتل " 272

وقوله كذلك " الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ " 194

وقوله " ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب " 211

وقوله سبحانه " وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ " 216

وقوله " وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى " 237

وقوله " وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه " 270

ج– تأكيد التعقيب يكون بحرف " أن " خاصة مع أسماء الله الحسنى ذوات البنى المتشابهة مثل:

[1] العسكري، الصناعتين، ص 416.

إنه هو التواب الرحيم، إن الله واسع عليم، إن الله شاكر عليم، إن الله غفور رحيم، إن الله عزيز حكيم ...

وقد يكون التأكيد من دونها مثل:

والله سريع الحساب، والله رؤوف بالعباد، والله سميع عليم، والله غفور حليم، والله عزيز حكيم، والله غني حليم

إن الله على كل شئ قدير، والله على كل شئ قدير

د- التأكيد بالجملة:

وما يتبعها من أساليب تفيد التوكيد سواء في ذلك الاسمية أو الفعلية.

- **فالاسمية مثل:**

قول ربنا " وما الله بغافل عما تعملون " 75/ 144

وقوله " والله ذو الفضل العظيم " 105

وكذلك قوله " وإلى الله ترجع الأمور " 210

وقوله " والله يرزق من يشاء بغير حساب " 202

وكذلك " والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " 213

وقوله سبحانه " والله يعلم وأنتم لا تعلمون " 216

وقوله " والله لا يهدي القوم الظالمين " 258

ومثله " والله لا يهدي القوم الكافرين "264

- **والفعلية مثل:**

قال سبحانه " قل بيسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين " 93

وقال ربنا " واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين " 223

وقال جل وعلا " واعلموا أن الله غني حميد " 267

وقال " وما يذكر إلا أولوا الألباب " 269

وقال كذلك " وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه " 270

بقي أن نشير إلى أن التغيرات الطارئة على البناءات النحوية في نسق التوازي، تؤثر كذلك في الظواهر البلاغية، لأنّ كل تركيب نحوي في القرآن تصحبه دلالتين، أولهما بلاغية تراعي أحوال المخاطبين، وثانيهما صوتية تنبعث من اختلاف الإيقاع الدلالي، لجماع التوازي بين الأساليب اللغوية والأدائية المختلفة، سواء عن طريق اللفظ المفرد الذي يجسده الطباق والجناس ... ، أو التركيب اللغوي بين الجمل المبني على التقسيم المتساوي، اعتمادا على التطابق والتقابل أو والازدواج الفني[1]، وليس يخفى ما يحمله هذا من دلالات تترك أثرها في نفوس المتلقين .

وقد تخلل ثنايا هذا البحث كثير من الإيماءات لذلك، غير أنني لم أَفِها حقها من التحليل، ولذا ارتأيت دراستها منفردة، من خلال الظواهر البلاغية الثلاث الأكثر شيوعا ولطافة في النص القرآني وفي لسان العرب (التشبيه، الاستعارة، الكناية)، وما يحدو بي إلى إفرادها بالدراسة دون سائر الظواهر الأخرى، هو عظيم أثرها في صناعة التوازي بشقيه: الدلالي الذي تصنعه التراكيب، والإيقاعي الذي يصنعه حسنها الأدبي بتوظيفها لمختلف ظواهر علوم البلاغة.

أ: التشبيه:

يُحدِث التشبيه التوازي بوساطة قانوني النظام والتساوي، الذي يسري من خلالهما التوالي البسيط والتقسيم المتساوي للوحدات اللغوية ومن ثَمّ للفقرات، اعتمادا على بلاغة التشبيه المنبعثة من حسن تأليف الحروف، وابتكار مشبه به بعيد في الأذهان، مما يعين على تحقيق الترنم والتطريب، ومنه أمثلته في التنزيل قول ربنا ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ، يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ، زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ، نُورٌ عَلَى نُورٍ، يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ النور 35

يقول الطبري عن هذه الآية أنها "مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به، فقال: مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد، الذي أنزله إليهم فآمنوا به وصدقوا بما فيه في قلوب المؤمنين مثل مشكاة، ... ثم قال: (فِيهَا مِصْبَاحٌ) وهو السراج، وجعل السراج وهو المصباح مثلا لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات المبينات، ثم قال: (الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ) يعني: أن السراج الذي في المشكاة: في القنديل، وهو

[1] ينظر، محمد الشيخ، مرجع سابق، ص 30.

الزجاجة، وذلك مثل للقرآن، يقول: القرآن الذي في قلب المؤمن الذي أنار الله قلبه في صدره، ثم مثل الصدر في خلوصه من الكفر بالله والشكّ فيه، واستنارته بنور القرآن، واستضاءته بآيات ربه المبينات، ومواعظه فيها بالكوكب الدرّيّ، فقال: (الزُّجَاجَةُ) وذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه (كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ)[1]".

يهدف السير المتوالي والتقسيم المتساوي لوحدات الآية بواسطة التشبيه، إلى إثارة التوقعات بتقريب صورة النور الإلهي الذي أنار السماوات والأرض، فهو تشبيه مرسل مجمل – يقوم على ذكر الأداة وحذف وجه الشبه من التشبيهات – (مشكاة، مصباح، زجاجة، كوكب دري)، التي فرضت تقسيما متوازيا لتنازعِ بعضها من بعض، كما فرضت الاهتمام بوصف مصدر النور (شجرة مباركة)، ثم العناية بالقرآن الذي يهدي الله إليه وبه من يشاء، يتم ذلك كله في انتقال بديع متواز .

ب: الاستعارة:

تُشَابِهُ الاستعارة التشبيه في حسن تأليف الحروف، وربط المعاني ببعضها وتوليد بعضها من بعض، غير أنها أبعد منه غورا كونها تشبيه حُذف أحد طرفيه، "والتشبيه فيها منسي مجحود" [2] وهي تسهم في صناعة التوازي من خلال تجسيد صورة المعنى المراد تبليغه، ومن أمثلتها في القرآن المدني قوله جل ثناؤه حكاية عن المنافقين ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ البقرة 16

تقوم الاستعارة التصريحية في الآية مقام التأكيد للمعاني السالفة لها، فقوله سبحانه {اشتروا الضلالة بالهدى}استعارة مؤكدة استلزمها بيان الإغراق في الضلالة، وزادها توضيحاً قوله سبحانه {فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ} وهو الترشيح [3] الذي يبلغ بالاستعارة الذروة العليا[4]، وهو ما يذكّر بقانون التلازم الذي يشخص المعنى ويساعد على تصوّر المعاني، بعدم إقراره ورود عنصر بمعزل عن لازمه .

[1] الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تح محمد شاكر، ج 19، ط 01 (2000)، مؤسسة الرسالة بيروت، ص 184.

[2] علي الجارم وأحمد أمين، البلاغة الواضحة، دط (2007)، دار الفكر بيروت، ص 90.

[3] الترشيح: أن يؤتى بكلمة لا تصلح لضرب من المحاسن حتى يؤتى بلفظة تؤهلها لذلك

[4] الصابوني، مصدر سابق، ص 32

فحين تحليل الآية يعترضنا متلازمان، هما فعل الشراء وناتجُه من الربح أو الخسارة، فكأنّ الذين قايضوا الضلالة بالهدى يثبتون صفة الختم التي وُصفوا بها قبلُ، ورضوا الخسارة البَيّنِة فاستنكفوا بذلك لطريق الهداية البيّن مساره كذلك .

ج: الكناية:

اعتنى القرآن الكريم بهذا الفن من القول عناية فائقة، لأنّ بلاغة الكناية من شأنها إيصال الحقيقة مقرونة بدليلها، وتصيير المعاني المحسوسة إلى صور ملموسة مُشاهَدةٍ، وكثير ما تصحب التراكيب المتوازية في النص القرآني عموما، كنايات تقوي دلالة المعاني وجرس الإيقاع لاسيما في نهايات الآيات، من خلال العمل بقانوني التوازي ونقيضه التنوع أو التغير، وإليك فيما يلي البيان قال ربنا ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ الرحمن 13.

يبرز هنا قانون التكرار جليا سافرا، حينما تُكرر هذه الكناية كلما ذُكرت الآلاء الإلهية التي يترى تواليها على جنس المخاطَبين بضمير التثنية في الآية، بدلالات نفسية مغزاها التقرير والتوبيخ جراء تكذيب الآلاء لما فيها من إشراك بالله في الألوهية[1]، أما التقرير فيستفاد من حرف الاستفهام التقريري "أيّ"، إذ حق النعمة الشكر لا التكذيب، وأما التوبيخ فاستحقاقه متأتٍ من عدم الاعتراف بنعم الله تعالى[2]، فتكرارها إذاً له أغراض بلاغية خاضعة للسياق الواردة فيه .

ومن ثمّ فتكرار الآية باعث لعناصر الإثارة والإشباع لدى المرتل، واختلاف معانيها تبعا للسياق مثير لعناصر التغير والتنوع، وفي الوقت ذاته يفرض نمط تقسيم متساوٍ للآيات، علاوة على تكرار التناسق الإيقاعي المتأثر بانخفاضات الصوت وعذوبته حين وصف الجنة ونعيمها، وكذلك بارتفاعات الصوت وشدته حال وصف النار وجحيمها.

وكذلك القول في بعض الكنايات التي تُذيّل بها فواصل الآيات المتوازيات في السور المدنية، – والتي خَتمت أغلبها لعمق أثرها في الحث على العمل – ونشير هنا بالأخص إلى تلك المتضمنة لاسم من أسماء الله الحسنى، سواء وفق البناء النحوي الآتي:

مبتدأ + خبر + حرف جرّ + اسم موصول + صلة الموصول (فعل مضارع)

[1] ينظر ابن عاشور، مصدر سابق، ج 27، ص244 .

[2] ينظر نفسه ص 246 .

- نحو (والله بصير بما يعملون، والله بما تعملون عليم، والله على كل شيء قدير ...) ومنه ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ في قول ربنا ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ المجادلة 13 فإنها كناية عن التحذير من التفريط في طاعة الله ورسوله.

- أو مع تأخر الخبر: نحو:

﴿ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ في قوله جل ثناؤه ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ البقرة 283 كناية عن المجازاة بمثل الصنيع، لأن القادر لا يحول بينه وبين المؤاخذة إلا الجهل فإذا كان عليما أقام قسطاس الجزاء [1] .

- ومنه كذلك قوله تعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ التغابن 11 كناية عن عن مجازاة الصابرين بالثواب [2] الذي وعدهم الحق سبحانه به.

أو مع ورود اسمين مؤكدين (عادة ما يكونان خبران) من الأسماء الحسنى عقب لفظ الجلالة، وِفاقا للبناء النحوي الآتي: **إن + اسمها + خبرها**

كقول ربنا: ﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ المجادلة 02، فجملة " وإن الله لعفو كناية عن عدم مؤاخذتهم بما صدر منهم من الظهار قبل هذه الآية " [3]، وهذا محض ومنة فضل منه سبحانه على عباده .

وختاما نذيل هذا البحث بأجمل ما قيل في إعجاز القرآن، بأبيات من قصيدة " الهمزية " للإمام " شرف الدين البوصيري [4] :

---

[1] ابن عاشور، مصدر سابق، ج 03، ص 128.

[2] نفسه، ج 28، ص 280.

[3] نفسه ج 28، ص 13.

[4] أبو الفرج نور الدين بن برهان، السيرة الحلبية، ج 03، ط 02 (2006)، دار الكتب العلمية بيروت، ص 438 .

أعجز الإنس آية منه والجن فهـلا يأتي بـــه البلغـــاء

كـل يوم يهدي إلى سامعيــه معجزات من لفظه القـــراء

تتحلى بـه المسامـع والأفـ واه فهو الحلي والحلـــواء

رقّ لفظا وراق معنى فجاءت في حلاها وحليها الخنســاء

وأرتنـــا فيه غوامض فضل رقــة مـن زلالـه وصفـــاء

كم أبانت آياته عن علــوم من حروف أبان عنها الهجاء

خـــاتمـــة

خـــاتمة:

في خاتمة هذا البحث، لا يسعني بداية، إلا الاعتراف بأن أبين ما في الإنسان ضعفه " وأول ما يبدو من ضعف ابن آدم، أنه لا يكتب كتابا فيبيت عنده ليلة، إلا أحب في غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة واحدة فكيف في سنين عدة " [1]، ثم كيف إن كان العمل متصلا بالتنزيل العزيز .

إن القرآن بأسلوبه الفريد المعجز بآخر حرف فيه، نور وهدى ودستور حياة، وما من شيء إلا بينه الله فيه نصا أو إشارة أو إيماءً، وعلى المبتغي فهمه أن يقرأه بمراد وسرّ الله فيه، دون جنوح إلى شطط، أو شرود إلى غواية، أو ميل عن الحق.

والظواهر اللغوية القرآنية لا تخرج عن ذلك، وقد ضمّنه سبحانه منها ما جعله متفردا عن غيره من الأساليب، ليبقى كتاب الله على مرّ العصور ناداً عن التصنيف ويأبى إلا التفرد والعلو.

وفيما يلي أهم نتائج ما حواه هذا البحث:

- يظل الإعجاز سمة ملازمة للقرآن الكريم، يأخذ منها كل جيل ما يناسب عصره.
- عمود البلاغة القرآنية بنيان مرصوص، مبني على مراعاة مقتضى أحوال المخاطبين، ولذلك لا يقبل التبديل أو التغير بين مفرداته وتراكيبه.
- التوازي هو تشابه البنيات واختلاف المعاني، وهو جامع لعلوم لغوية منصهرة فيه، وهو ظاهرة لصيقة بكل الآداب العالمية .
- اهتمام القدامى بالتوازي انحصر في دائرة السجع والقافية، وما يلحق بهما.
- يتجاوز التوازي لدى المحدثين السجع والقافية، ليشمل الظواهر الإيقاعية ودلالاتها، نظرا لما تعرفه الموضوعات الصوتية من نضج ووضوح لديهم .
- تعدّ الدراسات الغربية أحفل من غيرها بموضوع التوازي.
- التوازي في القرآن ظاهرة بارزة يشهد له تواتر الثنائيات المتشابهة فيه.
- للتوازي في القرآن أنواع ثلاثة هي: تواز دقيق يبلغ حدّ التكرار، تواز متجانس، تواز أقل تجانسا.

[1] أبو منصور الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تح، مفيد محمد قمحية، ج 01، ط 01 (1983)، دار الكتب العلمية بيروت.

– يعدّ النص القرآني في حكم السياق الواحد المتصل، ولذلك فالسياق عنصر أساس في الكشف عن دلالات تراكيب الآيات المتوازية فيه .

– تشكل الفاصلة القرآنية موقعا رحبا لظاهرة التوازي، وهي ليست حيلة يُلجأ إليها في نهاية الآيات كقافية الشعر وقرينة السجع، بل ضرورة يقتضيها السياق .

– يمكن اختزال قوانين الإيقاع، إلى قانونين كبيرين هما: التوازي و التغير، يهتم الأول بإشباع عناصر التوقع، ويعمل الآخر على كسر الرتابة ودفع السأمة.

– التوازي في السور المدنية ظاهرة جلية، تقضيه إعادة الأحكام بين الفينة والأخرى للتأكيد عليها، ولذلك تجده في البدايات والثنايا كما في تجده في النهايات.

– التوازي في السور المدنية تصنعه ظواهر لغوية متداخلة فيما بينها، وعليه فلا معنى لدراسة الظواهر النحوية بمعزل عن البلاغية، اللهم إلا لضرورة الدراسة والتحليل التي تقتضي تبيان كل منها على حدة.

– توازي التعقيب (النمو المتوالي) يأتي كخلاصة أو تعليل أو نتيجة لمضمون الآية، وهو متعلق بما سبقه وبما يلحقه من دلالات غير منفصل عنها البته .

تلك هي أهمّ النتائج التي استخلصتها من بحثي في موضوع " بلاغة التوازي في السور المدنية "

فـالله حسبـي وبـه اعتصـم مـن كـل مـا يشينـه أو يصـم

بـه انفـع اللهـمّ مـن قــراه ومـــن بنـاظـــر الرضـــى رأه

واغفـــــر لنـا ولـوالـديـنـــا واغفـــر لمـن علمنـا آمينـــا

فإن لاقت قبولا لديكم فإمساك بمعروف، وإن لم تلق فتسريح بإحسان، والله المستعان والموفق لصواب هذا البحث، وهو براء مما ورد فيه من تقصير ونقصان، والسلام مسك الختام.

الفهرست

قائمة المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم**

المصادر:

1. ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تح حنفي محمد شرف، دط، لجنة إحياء التراث الإمارات .
2. ابن القيم الجوزية، الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن، دتح، دط 1987، دار الهلال بيروت
3. ابن حجة الحموي، خزانة الأدب وغاية الأرب، تح عصام شقيو، دط 2004، دار الهلال بيروت
4. ابن عبد ربه، العقد الفريد، دتح، ط 01 (1983)، دار الكتب العلمية بيروت .
5. ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير الكتاب المجيد تح أحمد عبد الله القرشي رسلان، دط (1998)، القاهرة .
6. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دط (1996)، دار الحديث القاهرة .
7. ابن منظور، لسان العرب، دتح، ط03 (1993) دار صادر بيروت .
8. أبو البقاء الكفوي، الكليات معجم في الفروق والمصطلحات اللغوية، تح عدنان درويش ومحمد المصري، دط، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان.
9. أبو الحسن الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلاّم، ط03 (1976)، دار المعارف المصرية
10. أبو الفرج نور الدين بن برهان، السيرة الحلبية، ج 03، ط 02 (2006)، دار الكتب العلمية بيروت .
11. أبو بكر البيهقي، الأسماء والصفات، تح: عبد الله الحاشدي، ط01 (1993)، مكتبة السودي، السعودية .
12. أبو سليمان الخطابي، بيان إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلاّم، ط03 (1976)، دار المعارف المصرية
13. أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، دتح، دط (2002) دار ومكتبة الهلال، بيروت
14. أبو عمرو الداني، المحكم في نقط المصاحف، تح د/عزة حسن ، ط 02 (1986) ، دار الفكر دمشق

15. أبو عيسى الترمذي، سنن الترمذي، تح إبراهيم عطوة عوض، ط 02 (1975)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر.
16. أبو محمد ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح عبد السلام عبد الشافي محمد، ط01 (2001) دار الكتب العلمية، بيروت .
17. أبو محمد الحريري، مقامات الحريري، دتح، دط (1873)، مطبعة المعارف بيروت.
18. أبو منصور الأزهري، تهذيب اللغة،تح محمد عوض مرعب، ط01 (2001)، دار إحياء التراث العربي بيروت. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح محمود شاكر، دط ، دار المدني جدة السعودية .
19. أبو هلال العسكري، الصناعتين: الكتابة والشعر، تح علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم دط (1998)، المكتبة العصرية بيروت.
20. أبو هلال العسكري، الأوائل، دتح، ط01 (1987)، دار البشير طنطا مصر.
21. أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، يوسف الصميلي، دط، المكتبة العصرية بيروت، لبنان .
22. أحمد بن يحي ثعلب، قواعد الشعر، تح رمضان عبد التواب، ط 02 (1995)، مكتبة الخانجي القاهرة
23. الباقلاني، إعجاز القرآن، تح: السيد أحمد صقر، ط 05 (1997)، دار المعارف القاهرة.
24. برهان الدين الكرماني، أسرار التكرار في القرآن أو (البرهان في متشابه القرآن)، تح: أحمد عطا، دط، دار الفضيلة .
25. البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دتح، دط، دار الكتاب الإسلامي القاهرة .
26. تقي الدين الدقيقي، اتفاق المباني وافتراق المعاني، تح: عبد الرؤوف جبر، ط01 (1985)، دار عمان الأردن
27. الجدول في إعراب القرآن، محمود بن عبد الرحيم صافي، ط 04 (1997)، دار الرشيد دمشق .
28. حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دتح، دط، المكتبة الالكترونية الشاملة،
29. الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، تح: محمد مصطفى آيدين، ط 01 (2001)، جامعة أم القرى السعودية .
30. الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح إبراهيم شمس الدين، ط 01 (2003)، دار الكتب العلمية بيروت.

31. الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تح مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دط، دار الهلال بيروت
32. الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، دتح، ط01 (1994) دار الكتبي.
33. الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 01 (1957)، دار إحياء الكتب العربية سوريا.
34. الزمخشري جار الله، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، ط 01 (1998)، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
35. الزمخشري جار الله، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دتح، ط 03 (1986)، دار الكتاب العربي بيروت.
36. السجلماسي المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح: علال الغازي، ط 01 (1980)، مكتبة المعارف المغرب.
37. سيد قطب، الظلال، ط 17 (1991) دار الشروق – بيروت– القاهرة .
38. السيوطي جلال الدين ، معترك الأقران في إعجاز القرآن، ط01(1988) دار الكتب العلمية بيروت
39. السيوطي جلال الدين، أسرار ترتيب القرآن،دتح، دط ، دار الفضيلة .
40. السيوطي جلال الدين، الاتقان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دط (1974)، دار الهيئة المصرية العامة للكتاب .
41. الشريف الجرجاني، التعريفات، تح مجموعة من العلماء ، ط01 (1983)، دار الكتب العلمية بيروت لبنان .
42. شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دتح، دار الكتب والوثائق القاهرة
43. ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح عدنان درويش ومحمد المصري، دط، دار نهضة مصر.
44. الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دط (1984)، الدار التونسية، تونس
45. الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تح محمد شاكر، ج 19، ط 01 (2000)، مؤسسة الرسالة بيروت.
46. عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ، ط 03، مطبعة عيسى الحلبي وشركائه، سوريا.
47. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح محمود شاكر، دط ، دار المدني جدة السعودية .

48. عبد القاهر الجرجاني، الرسالة الشافية، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلاّم، ط03 (1976)، دار المعارف المصرية .
49. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمود شاكر، ط 03 (1992)، دار المدني جدة .
50. عز الدين بن عبد السلام، تفسير القرآن، تح عبد الله بن إبراهيم الوهبي، ط 01 (1996)، دار ابن حزم، بيروت .
51. فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دتح، ط 03 (1999)، دار إحياء التراث العربي بيروت
52. محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح محمد زهير بن ناصر الناصر، ط01 (2001) دار طوق النجاة .
53. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ط 01 (1997)، دار الصابوني القاهرة.
54. نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ط 02 (2009) السعودية.

المراجع

55. إبراهيم الأبياري، الموسوعة القرآنية، دط (1484) ، مؤسسة سجل العرب .
56. أبو بكر الجزائري، نداءات الرحمن لأهل الإيمان، ط 03 (2001)، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة
57. أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، دط (2005)، نهضة مصر، ص 64.
58. أحمد الدمنهوري، حلية اللب المصون في شرح الجوهر المكنون، دط.
59. أحمد عمر مختار، دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته، ط 02 (2006)، عالم الكتب القاهرة .
60. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ط05 (2006)، دار عالم الكتب بيروت .
61. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 18، ط01 (2001)، دار الساقي.
62. رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث الغوي، ط03 (1997)، مكتبة الخانجي القاهرة .
63. رومان ياكوبسون، قضايا الشعرية، ترجمة : محمد الولي، و مبارك حنون، ، ط1 ، (1988)، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب.
64. سيد قطب، التصوير الفني، ط 17، دار الشروق القاهرة.
65. سيد قطب، التصوير الفني، ط 17، دار الشروق، مصر .

66. شايع الأسمري، مع الامام أبي إسحاق الشاطبي في مباحث من علوم القرآن الكريم وتفسيره، دط (2002)، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .
67. عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني، ومسائل ابن الأزرق، ط 03، دار المعارف بيروت .
68. عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، ط03، الدار العربية للكتاب، ليبيا.
69. عبد العليم إبراهيم، الإملاء والترقيم في اللغة العربية، دط، مكتبة غريب مصر.
70. عبد المالك مرتاض، بنية الخطاب الشعري، ط01 (1986)، دار الحداثة بيروت .
71. عبد المالك مرتاض، نظام الخطاب القرآني، دط، دار هومه الجزائر
72. عبد الواحد الشيخ، البديع والتوازي، ط01(1999)، مكتبة الإشعاع الفنية، القاهرة .
73. علي الجارم وأحمد أمين، البلاغة الواضحة، دط (2007)، دار الفكر بيروت
74. علي صبح، الصورة الأدبية تاريخ ونقد، دط، دار إحياء الكتب العربية، مصر.
75. فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني،ط02 (2002)، شركة العاتك القاهرة.
76. فهد الرومي، دراسات في علوم القرآن الكريم، ط 12 (2003)، المكتبة الشاملة الالكترونية.
77. المثنى عبد الفتاح محمود، نظرية السياق القرآني، ط 01 (2008)، دار وائل عمان .
78. محمد أبو زهرة، القرآن المعجزة الكبرى، دط، دار الفكر دمشق.
79. محمد الحسناوي، الفاصلة في القرآن، ط 02 (2000)، دار عمار عمان.
80. محمد عبد الرحمن الشايع، المكي والمدني في القرآن، ط 01 (1997)، مكتبة الملك فهد السعودية
81. محمد مفتاح، التلقي والتأويل، ط01 (1994)، المركز الثقافي المغربي، المملكة المغربية .
82. محمد مفتاح، المفاهيم معالم، ط 01 1999، المركز الثقافي المغربي المملكة المغربية، ص 161.
83. محمود عباس العقاد، اللغة الشاعرة، دط، دار نهضة مصر.
84. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط 08(2005)، دار الكتاب العربي بيروت لبنان.
85. منير سلطان، الفصل والوصل في القرآن الكريم، ط 02 ، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر.
86. نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ط 05 ، دار العلم للملايين بيروت، ص 266.
87. نخبة من أساتذة التفسير، التفسير المسير، ط 02 (2009)، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – المملكة العربية السعودية .
88. نظم الجوهر المكنون، عبد الرحمن الأخضري.

89. هانم محمد حجازي الشامي، أثر السياق في بنية الأسماء المنتهية بأسماء الله الحسنى، دط (2013)، مكتبة الآداب القاهرة .

90. والي دادة عبد الحكيم، مباحث إيقاعية في اللغة العربية، ط01 (2014)، دار هومه الجزائر.

المجلات

91. إبراهيم الحمداني، بنية التوازي في قصيدة فتح عمورية، مج كلية التربية الأساسية بغداد، ع 13 (2013) .

92. إبراهيم الحمداني، بنية التوازي في قصيدة فتح عمورية، مج كلية التربية الأساسية، ع13 (2013).

93. أشواق النجار، التوازي الصوتي في سورة القمر، مج آداب الرافدين، بغداد، ع58 (2009).

94. أنسام خضير خليل، الجرس والإيقاع في الفواصل القرآنية، مجلة كلية الآداب بغداد، العدد 98 .

95. بريكان سعد الشلوي، التقديم والأخير في المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، مج جامعة الطائف السعودية، ج 01، ع 04 (2010).

96. غانم صالح سلطان، التوازي في قصيدة محمد درويش عاشق من فلسطين، مج أبحاث كلية التربية ج11، ع02 (2011)

97. محمد كنوني، التوازي ولغة الشعر، مج فكر ونقد، ع 18 (1999) .

98. موسى ربابعة، ظاهرة التوازي في شعر الخنساء، مج دراسات العلوم الإنسانية بغداد ع 15 (1995).

99. هاني صبري، توازي الضمائم في النسق القرآني، مجلة التربية والعلم بغداد، ع 04 (2008).

100. وهاب داودي، البنيات المتوازية في شعر مصطفى محمد الغماري، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة بسكرة الجزائر، ع 10 (2014).

البحوث الجامعية

101. عبد الله الجياني، التوازي التركيبي في القرآن، رسالة ماجستير .

102. عبد المنعم الدليمي، التوازي في سورة القمر

المحتويات

فهرس الموضوعات

الموضوعات	الصفحة
الإهداء	
شكر وعرفان	
مقدمة	
مدخل: في إعجاز القرآن	05
الفصل الأول: المفهوم والأهمية	16
المبحث الأول: ضبط المفاهيم وتحديد الأهمية	16
أ:مفهوم التوازي لغة واصطلاحا.....	16
ب: أهمية التوازي.....	19
المبحث الثاني: تأصيل المفهوم في الدراسات البلاغية	22
أ: في الدراسات العربية.....	22
● عند القدامى.....	22
● عند المحدثين.....	34
ب: في الدراسات الغربية.....	40
المبحث الثالث: أشكال التوازي في القرآن الكريم	44
أ: التوازي العام.....	45
● المستوى الصوتي.....	45
● المستوى الصرفي.....	49
● المستوى التركيبي.....	50
ب: التوازي الخاص.....	55
● تواز دقيق يشبه التكرار.....	55
● تواز متقارب.....	56
● تواز أقل تقاربا.....	57
الفصل الثاني: بنية التوازي في التعبير القرآني	
المبحث الأول: أثر السياق في صناعة التوازي	59
● توازي الآيات المنتهية بأسماء الله الحسنى.....	69

- دور الضمائم الإفصاحية في صناعة توازي السياق القرآني..... 73

المبحث الثاني: الفاصلة القرآنية والسجع 79

أ: نظرة عامة 79

ب: أركان الفواصل..... 85

ج: مميزات الفاصلة القرآنية..... 87

د: أنواع الفواصل بحسب الأبنية..... 89

هـ: القيمة الصوتية للفاصلة القرآنية..... 92

و: التوازي في الفواصل القرآنية..... 95

المبحث الثالث: الإيقاع في القرآن الكريم 97

أ: قوانين الإيقاع في التركيب القرآني..... 102

ب: التوازي وقوانين الإيقاع..... 118

الفصل الثالث: التوازي في السور المدنية 121

توطئة..... 121

المبحث الأول: التوازي في آيات كاملة..... 122

المبحث الثاني: التوازي في بدايات وثنايا الآيات المدنية..... 133

المبحث الثالث: التوازي في نهايات الآيات المدنية..... 140

خاتمة 150

فهرس الموضوعات 152

ملخص

يعد التوازي من أهم الأنساق الدلالية التي تجمع بين العلوم اللغوية المختلفة، ويعرف بأنه تشابه البنيات واختلاف المعاني، وهو ظاهرة لصيقة بجميع الآداب العالمية، وقد اهتم به البلاغيون القدامى في معرض حديثهم عن السجع وأنواعه (المرصّع، والمطرّف، والمتوازن، والمتوازي) فسمّوه تعادلا وتكافؤاً وتقسيما ومساواة ...، وازداد الاهتمام به لدى المحدثين مع شعر التفعيلة المستمد من الدراسات الغربية، فجاوزوا به مباحث السجع والقافية، ليشمل أثر التقسيم الثنائي وإيقاعته في إحداث التأثير والتأثر بين المرسل والمتلقي. وحينما نبحث عن أنواع التوازي في القرآن نجده مقسّما إلى ثلاث: تواز دقيق يشبه التكرار، تواز متقارب، وتواز أقل تقاربا، يخضع كل منها إلى عوامل تصنعه أهمها: السياق لاسيما في الآيات المنتهية بأسماء الله الحسنى، الفاصلة القرآنية في علاقتها بالسجع، وأخيرا الإيقاع القرآني الذي الخاضع لقوانين سبع، يختزلها قانون التوازي الذي يهتم بتزكية فواعل الإشباع، وقانون التغير الذي يهتم بكسر الرتابة بمخالفة المعهود، ومنه تستمد السور المدنية بلاغتها من خلال الظواهر اللغوية (النحوية والبلاغية) التي تهدف للتوكيد بوجه أخص، وموقع التوازي فيها يتراوح تشابه بين آيات كاملة مبثوثة في التنزيل، وبين تشابه في الثنايا، وبين آخر في النهايات أو ما يُسمى بتوازي التعقيب، الذي يأتي كخلاصة أو تعليل أو تأكيد للمعاني التي جاءت في الآيات.

الكلمات المفتاحية:

السجع المتوازي؛ التعادل؛ التكافؤ؛ التقسيم الثنائي؛ التعقيب؛ قوانين الإيقاع؛ الدلالات الإيقاعية؛ تواز يشبه التكرار؛ تواز متقارب؛ تواز أقل تقاربا.

نوقشت يوم 28 جوان 2015